

بقايا كل شيء!

أنيس منصور

دار المعارف بمصر

بقايا كل شيء!

أنيس منصور

بقايا كل شيء!

اقرأ ٢٦٢ – أكتوبر سنة ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

كلمة

هذه الصفحات هي بقايا دموع . . . صدى صرخات . . . ترددت بعيداً . . . فى نفسى، وفى نفوس الآخرين . . .

لها طعم الملح ، ولسع النار ، ووخز الإبر ، وإلحاح الضمير ، وبريق الأمل . .

إنها خريطة لأعماقى . .

وليست أعماقى ، ولا كل الأعماق ، واضحة . . .

فأنا دائماً أحاول ، دون ملل، أن أوضح نفسى لنفسى ، أن أسلط نفسى على نفسى ، أن أقلّب نفسى بيدى وأتفرج عليها . . برفق كأننى أحبها ، وبقسوة كأننى أكرهها !

وبين كراهيتى لنفسى وحبى لها : تتساقط الدموع ، ويتطاير العرق ، وتتمزق آهاتى ، وتضيع . .

وأضيع أنا . . فأنا لست إلا آهاتى !

وتنسحب كل ألوان الطيف ولا يبقى إلا لون دنياى : مرارة الطفولة ، وحيرة الشباب ، وفزع الرجولة !

ومن ومضة العين الخائفة ، ومن رجفة النفس القلقة ، ومن موت أصابعى على قلمى ، ومن ابتسامة زائرة لها لون الملح ودفء النار ، وطعم

الضمير ، من كل هذا ، كتبت صفحات هى بقايا نفسى ، وشظايا الآخرين . . .

إنها بقاياى . . . إنها شظاياهم !

أنيس منصور

صاحب مصنع

رأيت في قرية أحد الفلاحين يملك مصنعاً أنيقاً . . المصنع أبيض ناعم . . إنه يتحرك وصاحب المصنع يمشي وراءه . .

وأحياناً يتعب صاحب المصنع . فيجلس إلى جوار الحائط . . . أى حائط . . ويسند رأسه ويحملق فى الأفق . . وفى يده عصا . . وينام وعيناه مفتحتان . فإنه متعب لدرجة أن جفنه العلوى لا ينطبق على جفنه السفلى . . . إلا بصعوبة . . إن جاذبية الأرض لا تشد جفنه . . وإنما تشد دموعه من حين إلى حين . .

وعند ما يصحو هذا الفلاح ويتنبه إلى أن مصنعه — مصدر حياته ، مصدر ثروته — قد انتقل إلى مكان بعيد . فإنه يصحو من نومه أو من يقظته . . ويمد يده إلى الأرض يجمع بعض الوقود لهذا المصنع . .

لأن المصنع يعمل كل يوم . . وينتج كل يوم . .

ويأتى بالمصنع ويحمله على ذراعيه . . على صدره . . فى حنان . . كأم وجدت طفلها . .

ثم إذا هو يربط المصنع الصغير بحبل ، ويلف الحبل حول رجله هو ويضع الوقود خلف المصنع أو أمامه . . ويعود إلى الحائط ويسند ظهره . . ويلقى بجسمه على النبوت الذى يحمله فى يده ، ويتطلع

إلى سحابة فى السماء . . إنها لحاف طائر ، إنها سرير من حرير . . وعلى هذا السرير يتمدد وينام . . ويترك مصنعه الصغير يعمل . . ولا يدهش أبداً عندما يجد المصنع الأبيض الناعم يتطلع هو الآخر إلى السماء . . إلى السحاب . . ثم يسند المصنع الصغير رأسه إلى القيد . . إلى الحبل وينام . .

. . هذا الفلاح يملك إوزة !

تحت السلم !

«كان وجه جدتى العجوز أبيض ناصعاً . . وكان باسماً أيضاً ، كأن جدتى العجوز قد نسيت أنها ماتت !» . .

صاحب هذه العبارة هو الكاتب النرويجى العظيم كنوت هامزن . وجاءت هذه العبارة فى قصة « الجوع » .

ويذكرنى بهذه العبارة ، كل صباح وكل مساء رجل عجوز لا يعرف أحد بالضبط متى ولد ولا حتى متى يموت . ولا أحد يعرف من أين جاء . إنه مثل « طرح البحر » ألقت به الحياة إلى تحت السلم . . إنه يشبه جذع نخله . . إنه جاف مجعد . . وكلامه مجعد . فالكلمة الواحدة تتحول إلى حرف واحد أو حرفين متداخلين . ولا أحد يفهم ما يقول . فاللغة التى هى وسيلة المواصلات بين الناس لم يعد لها معنى عنده ، ولم تعد لها ضرورة . . فهذا العجوز يطلق أصواتاً كالحيوانات أو كالقبائل البدائية . . . .

فهناك من يقول إنه ابن أحد العمد وقد حاول أبوه أن يزوجه إحدى قريباته فرفض . وهرب من أبيه . وجاء إلى القاهرة يكسب قوته بعرق جبينه . ولم يكن صاحب حرفة .

فهو ابن ذوات . ولذلك وقف فى الشوارع يسأل الناس أن يعطوه ما يستحقه من أموال أبيه . فهو يجمع حقوقه من جيوب الناس . .

ويقال إنه جمع مئات الجنيهات . . . وهذه المئات مكدسة فى صفائح . والصفائح موجودة تحت السلم . وقد حدث فى العام الماضى أن ذهب هذا العجوز « عم سيد » بإحدى الصفائح وأعطاها لرجل غنى . . أمانة، واكتشف الرجل الغنى أن بها مائتى جنيه من الفضة .

ويقال إن عم سيد غضب من هذا الرجل الغنى ، ورفض أن يسحب أمواله من عنده !

ويقول أناس آخرون : إن عم سيد هذا يضع الأموال فى جيوبه ويتصدق بها على الفقراء . .

ولكن الذى لا أفهمه ولا أدريه أن هذا الرجل يطالب نفسه بمسئوليات ثقيلة . فهو يصر على أن يكنس وأن يمسح وأن يتولى حراسة البيت . . برغم أنه عجوز وعاجز عن السير والحركة . لا أحد يطالبه . . لا أحد يسأله شيئاً . ولكنه يعمل ليلا ونهاراً حتى يسقط من الإعياء على السلم . . وأكاد أضع حذائى كل يوم على صدره فيموت . . وأرى وجهه فى النور فأجده هادئاً باسماً كأنه نسى أنه مات . . أو أنه يجب أن يموت . .

ولكن ما هو الموت ؟

إن هذا الرجل ليس ميتاً فهو يتنفس وهو يدافع عن حياته بما بقى لديه من قوة .

ولكنه ليس حياً أيضاً . فالحى هو الذى له مشكلة ، وهذه المشكلة هى حياته هو ، كيف يحسنها ؟ كيف يوسع نطاقها ؟ كيف يعادى ؟ كيف يصادق الآخرين ؟ كيف يواجه غده وبعد غده ؟

إنه ليس حياً ، وليس ميتاً . . إنه مستمر . . كأنه قناة ضيقة ، بها ماء . . والماء يزحف على الأحجار الصغيرة فى قاعها . . أو كأنه غصن شجرة يتهيأ للجفاف التام . . فيه عصارة حياة ، ولكنها تتناقص يوماً بعد يوم . . .

إن الحياة تقوم فيه بعملية جرد أو تصفية ، فهى أطفأت نور عينه ، وقطعت الحرارة عن قلبه ، وحددت إقامته تحت السلم .

وأشعر أمام هذا الرجل بالإشفاق والكراهية والفزع . . .

إنه مسكين ليس له أحد ، وليس لأحد . . وأكره أن ألقى هذا المصير ، وأكره أن أموت عضواً عضواً هكذا . . أن أموت على دفعات . . أن أموت بالتجزئة . .

وأفزع من هذا الاستسلام الباسم . .

كأنه نسى أنه مات . . أو يجب أن يموت . . . .

وفى الليل وفى النهار عندما أعود إلى البيت أراه يزحف على السلالم . . لا أدرى كيف . . كأنه قطعة من الخبز القديم تجرها ملايين النمل . .

ثم أرى التراب يزحف وراءه ويتعلق به ، كأن تراب القبر يطارده . .

إن عم سيد هو الحى الذى يلاحقه قبره . وهو باسم الوجه . كأنه لم يمت بعد !

شكة إبرة ؟ !

كنت أصرخ وأبكي وأقول بصوت مذبوح : والله يادكتور . . اعفني من حياتي كلها . . اعفني من مشاكلي وعذابي . . إنني أحمل الكثير على كتفي . . أرحني يادكتور . . هذه فرصة انتظرتها طويلا . . . اجعلني أنام هكذا يوماً أو شهراً أو سنة . . أو اتركني أنام إلى الأبد .

وكنت أرفع رأسي والضوء يتدفق ساخناً كاوياً . . فلا أرى إلا أربعة من الممرضين وإلا منضدة طويلة تلمع بالسكاكين والمشارط والمناشير وكل أدوات القتل والتعذيب . . وكنت أرى وجه الطبيب ، إنه صديقي الدكتور ف . . إنني لم أعد أرى فيه وجه الصديق . . إنه وجه جاد قاس لا يعرفني ولا ينظر إلي . . ولا ينطق إلا بعبارة واحدة هي : يا أخي إنها شكة إبرة ! شكة إبرة !

وسقط رأسي من كتفي إلى المنضدة التي تمددت عليها وعدت أقول : أعطني حقنة بنج أخرى . . بل أعطني كل ما عندك من البنج . . أعطني حقنة في قلبي . . في عقلي . . بل أعطني حقنة في أسرتي بل في حياتي كلها . . ماذا تعمل أيها الطبيب ؟ أنت تنتزع أحد أظافري من أحد أصابعي . . ليس هذا هو الظفر الوحيد في جسمي . . انزع كل أظافري . . . هناك أظافر أخرى في حياتي . . وكلها توجعني . . في عيني وفي يدي

وفى رأسى . .

وكان الطبيب يضحك والممرضون يضحكون وأسمع أصواتاً تشبه الكلام . . ولكننى غارق فى ألم وعرق وخوف ويأس .

وعدت أقول للطبيب : اعفنى من حياتى كلها يادكتور . . هل تعرف ماذا أعمل . إننى كعامل التليفون . . إننى أرد على مئات النداءات . . . مئات المتاعب . . كلها تتزاحم على رأسى فى آن واحد . . تصوريا دكتور هذا يحدث كل يوم . . اعفنى من هذه المكالمات . . حطم هذه الأجراس التى ترن وتئن . . اقطع الحرارة . . اقطع النور . اقطع الماء . اقطع أظافرى وأصابعى وحياتى كلها . .

لا أدرى كم من الوقت مضى وأنا أصرخ ولا أدرى ما أقول . . ولا كيف عدت إلى بيتى . . ولكن بعد ساعتين تماماً دبت الحياة فى أصبعى .. تفجر الدم .. والألم .. والدموع وأحسست بالمشارط والسكاكين والطبيب والممرضون كلهم يتزاحمون فى أصبعى ووراءهم وأمامهم ملايين من النمل والنحل . .

وظللت أرميهم جميعاً بأقراص مسكنة . . واختفى الطبيب والممرضات وذابت المشارط والسكاكين ولم يبق إلا النمل والنحل . . .

ظللت ساهراً معها حتى الصباح .

إنها شكة إبرة ! !

هذه الليلة لك !

يا أي إنسان هذه الليلة لك ! . إن كنت حزيناً اضحك . إن كنت سعيداً اضحك .

اضحك قبل أن ينصحك الأطباء بالاقتصاد فى تحريك الشفتين والعينين . اضحك فزماننا ملىء بالهموم . إننا غيرنا الدنيا حولنا ولم نتغير .. إننا نقطع المسافة بين القطب الجنوبى والشمالى فى ثوان ، ونحتاج إلى سنوات لكى نصل من قلب إلى قلب . إن عقولنا فى العشرين ، وقلوبنا فى التسعين . إننا لم نتغير ، فما نزال نبكى عندما نولد . ونظل نبكى مدى الحياة .. ويبكى الناس علينا بعد أن نموت . فأنت ترى أننا نقترض دموع الآخرين ! .

هذه الليلة لك . لا تسأل عن المناسبة ولا تسأل من هو صاحب المولد . إنه أنت وكل الناس . وفى استطاعتك أن تولد الليلة دون بكاء .

اخرج من البيت ، إلى أى مكان وفى أى وقت . ستجد الناس كلهم هناك فى انتظارك فى أجمل ملابسهم وأجمل نسائهم . هناك الموسيقى والطعام والشراب . املأ حياتك بهم . انظر إلى وجوه أخرى غير وجهك ، واستمع إلى أصوات أخرى غير صوتك . اخرج من ملابسك من جلدك الحقيقى وجلدك الزائف .

هل تعرف الجلد الزائف الذى نصنعه جميعاً؟ إننى لاأريد أن أضيع وقتك وأن أشغلك عن الخروج إلى الشارع أو إلى أى مكان . . لن أستغرق إلا دقيقة واحدة . . أنت تعرف أن الحداد له يد غليظة وأن الفلاح له قدم غليظة ، وأن بائع العرقسوس ينحنى إلى الوراء ، وأن السقا ينحنى إلى الأمام .. إنهم جميعاً يتأثرون بالعمل الذى يعملونه.

إن هذا العمل يترك أثره فى أجسامهم وفى نفوسهم ، وكل إنسان كذلك . فالعمل يضغط علينا . انظر إلى الخاتم فى أصبعك انظر إلى « جلدة » الساعة فى يدك . . إنها تركت أثراً يبقى بعد نزعها من يدك . . فتصور أنت أن هناك مليوناً مثل « جلدة » الساعة قد غطت أيدينا وأرجلنا وقلوبنا وعقولنا ، ليلا ونهاراً . .

وهذه الليلة يجب أن نلقى بها بعيداً ، أن ننساها . يجب أن تأخذ إجازة من نفسك من جلدك الزائف . . أن تكون اليوم إنساناً لا موظفاً ولا عاملا . فأنت نسيت أنك إنسان ولم تعد تذكر الاسم المكتوب فى بطاقتك النقابية و بطاقتك المصلحية .. أنت شىء آخر و يجب أن تتذكر هذه الليلة أنك كائن آخر .

أنت الآن بين الناس . أنت الآن نقطة فى بحر حى . ليس هذا هو المهم . ليس المهم أن يكون الناس معك .

ولكن المهم أن تكون أنت مع الناس . فمن الممكن أن أتطلع إلى الناس ولا أراهم لأنى سرحان أو لأنى أعمى ، ومن الممكن أن أحضر حفلة موسيقية فلا أسمعها لأنى أطرش أو لأن هموماً داخلية تملأ أذنى بالقطن .

فالمهم أن أشعر بالناس ، أن أفتح لهم نفسى ليدخلوا ويضحكوا ويملؤوها ويملؤونى . إن الطيور تسبح فى الماء ولكنها لا تبتل لأن ريشها مغطى بالزيت . . . . والذين يسبحون يغطون أجسامهم بالشحم حتى لا تبتل أجسامهم . . إنهم فى الماء لا يشعرون به . . وأنت فى الناس ولن تشعر بهم إلا إذا نزعت هذا الشحم بل هذا الريش كله . . وإلا فأنت الأطرش فى الزفة . . وإلا فأنت السقا الذى لم ينس قربته يوم زفافه فحملها على صدره وراح يوزع الماء على المدعوين ونسى عروسه . . فإذا هربت منه العروس فهى على حق ، وإذا ضحك منه المدعوون فهم على حق أيضاً .

الليلة لك . فانس قربتك . وتذكر عروسك . والناس حولك . ولا تفكر أبداً فى المناسبة التى من أجلها يفرح الناس هذه الليلة . اضحك . اشرب . ارقص . فإن الموت قريب . والناس يموتون فجأة فلماذا لا تعيش فجأة؟ لماذا لا تضحك فجأة ؟ لماذا تسأل الناس أو حتى نفسك عن المناسبة التى يحتفل بها العالم كله ؟

اضحك بلا سبب بلا مناسبة . . سيكون لديك وقت لتعرف السبب والمناسبة فيما بعد . . .

وإذا كان لا بد أن تعرف المناسبة . . فاليوم هو الكريسماس . . ومن أجل ذلك يحتفل أتباع موسى وعيسى ومحمد . فى هذا اليوم ولد أحد دعاة السلام على الأرض . وكان مصيره هو نفس مصير دعاة السلام : العذاب والهوان والسخرية .

اليوم يحتفل الناس بذكراه .. فيشربون نبيذاً فى لون دم المسيح ،

ويصابون بصداع كالمسامير التى دقت فى رجليه ... ثم على أحزانهم وهمومهم السلام . . وفى نفوسهم المحبة !

لا تنظر فى ساعتك . . فلدينا كثير منها فى كل يد وفى كل حائط وفى كل ميدان وفى كل صحيفة . ولكن انظر إلى وجهك فى عينى الفتاة التى تجلس إلى جوارك . . وعش معها . فالناس لا يعيشون إلا معاً . . . ولكن عندما يموتون ، يدخلون القبر فرادى . .

اضحك ، فهذه الليلة لك . . ولا تتذكر شيئاً من هذا الكلام !

دماغنا !

إذا كان مش عاجبك روح اسكن فى الزمالك ولا فى جاردن سيتى .. مالناش نفس وإلا إيه . . مش كفاية اللى احنا فيه .

هذا كلام يقال للذين يحتجون على ارتفاع صوت الراديو بعد منتصف الليل فى بولاق، أنا شخصياً لا أحتج . . . لأنى أعرف هذا الرد مقدماً. ولأنى لا أكون فى البيت عند منتصف الليل، فأنا أهرب من الساعة عندما تدق ١٢ مرة . . وأعود إلى البيت بعد ذلك بساعات . . وهناك سبب آخر وهو أنه من الصعب أن يرى الإنسان اثنين يتعانقان عند منتصف الليل حتى لو كانا عقربى الساعة . . لذلك أرجع مع الساعات الصغيرة من الليل . . .

فهل عندك سبب لكى تفتح الراديو فيصرخ ويملأ الدنيا زعيقاً ونعيقاً ؟ طبعاً قلة ذوقك وعدم تقديرك لشعور الغير حولك . . كأن العمارة التى تسكنها ليس فيها أحد سواك وكأن ذوقك هو ذوق الناس كلهم .. وكأنه لا أحد مريض ولا أحد يعمل ولا طالب يذاكر فليس على الأرض سواك . . .

عندك سبب لاستخدام الميكروفون فى أية مناسبة . فى فرح أو فى مأتم . طبعاً النفخة الكاذبة والتباهى والادعاء .

أنت عندك فرح . . أنت عريس . فما ذنب الناس يا أخى . . أنت سعيد بعروسك فبالرفاء والبنين أيها العريس . ولكن من قال إن سعادتك هذه واجب على كل إنسان . . ؟ على كل رجل وكل امرأة . . وما معنى أن يكون عدد المدعوين عشرين أو ثلاثين ثم تضع ميكروفوناً خارج البيت ليصبح عدد المستمعين مئات بالقوة ؟ . إنهم فعلا مئات ولكنهم يلعنونك أنت وعروسك. . .

عندك مأتم . ليكن . البقاء لله ! وكل إنسان سيموت . ولكن من قال لك إن فقيدك هو فقيد الناس جميعاً ؟ من قال لك إن حزنك هو حزن البشرية . . . إن أحداً يا سيدى لا يعنيه أمرك . . أبداً . هذه حقيقة . إن حياتنا كقطار الصعيد . . ونحن أشولة . . ومقاطف وسلال تتساقط على طول الطريق . فلا يدرى بنا أحد والقطار يمشى . ويجب أن يمشى سواء كان عندك ميكرفون واحد أو مليون . ما ذنب الناس ؟ ما ذنب من لا يهمه أمرك ؟ ما ذنب الذين ليسوا من دينك أو من عائلتك ؟ . وإذا كان عدد الذين جاءوا لتعزيتك ٢٠ أو ٣٠ فلماذا الميكرفون ؟

كل شيء فى بلدنا زعيق .. الكلام والسلام والخناق والأفراح والمآتم... عندك سبب لهذا كله ؟ طبعاً هناك سبب وهو أن المتمدينين أو المتحضرين هم أقل الناس ميلا إلى الضوضاء وأكثرهم ميلا إلى الوحدة إلى العزلة . كلما أحب الإنسان الهدوء كان متحضراً . كل الذين سافروا إلى سويسرا لا يسمعون فى شوارعها أى صوت . أى صوت . وعلى الرغم من هذا الهدوء التام تجد فى الشوارع لافتات مكتوباً عليها : منطقة صمت . .

أى صمت يريدون هناك ؟ لا بد أنهم يريدون منا أن نكف عن التنفس من أجل المرضى والطلبة . . ولأن هناك حرية أخرى غير حرية الكلام هى حرية الصمت . . من حق كل إنسان أن يصمت وأن يستمتع بسكونه . فلا يجب أن نخرجه من صمته . كما أنه لا يجب أن نخرج لسانه من فمه فيتكلم بالقوة . . ولا يجب أن نقتحم عليه هدوءه . . أنت حر فى أن تتكلم ولكن بشرط ألا تعتدى على صمت غيرك . . حرية عجيبة لا نعرفها فى بلادنا .

إن الميكرفونات تشبه « البخاخة » التى تطارد بها الصمت كأنه ذباب أو بعوض !

وليس أسهل من أن تتحول من البدائية إلى الحضارة . . بسيطة جداً . بأصبع واحدة تستطيع أن تدير مفتاح الراديو . وبيدك تستطيع أن تنزل الميكرفون . . فكل ما يسرك أو يحزنك خاص بك أنت وحدك . . واحنا ما لنا يا أخى . . !

تحت أقدامنا

أبناء شارعنا ، لا ينظرون إلى فوق . . فنى ذلك خطر عليهم ، فنى الأرض حفر وفيها بالوعات وطوب وفيها أطفال صغار وعليها خضراوات وليمون وطماطم وتتساقط عليها أرغفة من الخبز . . وقد يصطدم الإنسان ببائع لبن أو يرتطم بتلميذة فى طريقها إلى المدرسة .. وقد يسمع من حين إلى حين : فتح يا افندى . . يا فتاح يا عليم . . صبحنا وصبح الملك لله . فالنظر إلى الأرض أحسن وأريح . .

وفوق . . فيه إيه ؟

لا شيء . . فوق مثل تحت . . ناس فوق بعض . . ثم فوق إيه ؟ فوق الأسطح أسوأ جداً من الشارع . . وأسوأ من الناس اللى تحت . . أسطح البيوت مليئة أيضاً بالحفرات والمطبات والتراب والعفونة . . وليس فوق إلا الفراغ . . بلاليص فارغة وصفائح وصناديق . . وقوالب طوب وحجارة وأعواد حديدية ، وطيور وأرانب . . ليس فوق إلا الفراغ وإلا « الفوارغ » .. وأسطح البيوت لا يسكنها إلا عدد قليل جداً من الناس . . إنها كالقمم . . ضيقة منعزلة باردة . . إن قمة الهرم العظيم ضيقة جداً .. منعزلة باردة . . الصراخ ينتهى إليها كهمس ، الأشياء تبدو منها ضئيلة جداً ، والرجال يبدون فى حجم الأطفال ، والأطفال فى حجم القطط . .

عندما تنزل الأمطار تتسخ أقدام الناس الذين تحت ، أما الذين فوق فتتسخ رؤوسهم . عندما تحدث الزلازل يهرب الذين فوق إلى تحت ، إلى حيث يعيش الناس ، إلى حيث تكون الضوضاء غطاء وغذاء لهم . .

لقد أقبل الصيف . . وأقبلت السهرات الطويلة فوق . . فوق الأسطح بين الكلاب والقطط والعرس والثعابين . . وأقبلت المشاجرات بعد منتصف الليالى . . والصرخات النائمة ، اقفل الراديو يا جدع يا للى هناك . . اسكت . . انت مالك . . أنا مش عارف أنام . . روح نام فى الزمالك . . نامى يا ولية . . أدينى نائمة . . الناس يقولوا إيه . . يقولوا إيه بنسرق . . ما لهم الناس . . انت يا للى رميت علينا المية . . اللى يلعن ويخرب ويحرق . . إلخ .

* * *

ونحن أبناء هذا الشارع لا نعرف أين سنتجه بأنظارنا إذا قامت بلدية القاهرة وسدت أفواه الحفر ، وأحكمت غطاء البالوعات ، وجمعت الأطفال من الشوارع وأجلست بائعى الليمون على مقاعد . . لا نعرف . . فقد تعودنا النظر إلى ما تحت . . تحت أقدامنا !

بلا أسف !

مرضك مسألة شخصية . . تعبك حكاية تخصك أنت . . عذابك كدموعك لا تدخل عيون الآخرين . فمن الذى يخفف عنك المرض ؟ الطبيب ؟ ممكن . إنه يضع يده على جسمك ، يحاول أن يقرأك على طريقة برايل ، ويضع أذنه على صدرك على ظهرك ، إنه يستمع إلى إشارات تلغرافية يبعث بها قلبك ويحاول أن يفكها ويخرج من جيبه ورقة ويكتب خطاباً إلى الجيوش التى تحارب فى دمك . . إلى الجراثيم والكريات البيضاء والحمراء . . يطلب إليها أن توقف القتال وإلا . . إنها كالرسالة التى ألقاها عمرو بن العاص فى النيل يطلب من النيل أن يمتلىء بالماء . . وتكون النتيجة طبعاً ألا تتوقف المعركة . فيلجأ الطبيب إلى العنف ، إلى استخدام الأسلحة والمواد المتفجرة والمواد السامة التى تقتل الجراثيم وترهق المريض أيضاً . ولكن الطبيب لا دخل له بعذابك ، ستظل تتعذب كما أنت . إن العذاب لا ينتقل إليه . . فإذا نجحت « وصفة » الطبيب ، فإنه يشعر بالارتياح لأن تشخيصه للمرض كان دقيقاً . وإذا لم تنجح هذه الوصفة ، حاول وصفة أخرى . . وثالثة ورابعة . . وإذا ظهرت أعراض جديدة لمرضك فمعنى ذلك أنك شىء غريب . وليس على الطبيب إلا أن يعود إلى كتبه . . !

ويبقى عذابك كما هو ، والمعركة دائرة فى الدم.لأنها تخضع لقوانين أخرى ولتفاعلات لا شأن لها بالطب وعلمه وتجاربه وارتياحه وعدم ارتياحه . . .

والناس الذين يحبونك مثلا . .

قد يكون مرضك مرهقاً لهم . هذا طبيعى . فأنت لا تعيش وحدك. أنت تعيش فى بيت وفى مكتب وفى مجتمع . ومرضك سيحدث بعض الارتباك ، تماماً كما تتوقف السيارة فى الطريق . ولكن سيمشى المرور بعد ذلك . وتظل أنت على جانب الطريق . إلى أن تتحرك من جديد أو تفسح مكاناً لغيرك . . فى الطريق أو فى الحياة كلها . .

هؤلاء يجلسون حولك . يرونك تتقلب يميناً وشمالا . كأنك سيجارة تلفها يد قوية فى ملاءة بيضاء أو فى بطانية غليظة . . ولكنك تظل تتألم أيضاً . فالألم يشبه الراديو المفتوح ، سيتكلم سواء استمع إليه أحد أو لم يستمع إليه أحد. إن الألم ليس كالزكام ينتقل بالعدوى . إنه تفاعل داخلى . إنهم يمدون أيديهم لك ويعودون بها كما كانت سليمة ، سترى التأثر فى عيونهم ولكن هذا التأثر ستراه عليهم أيضاً عند سماع أغنية حزينة ، وعند مشاهدة فيلم حزين . كل إنسان لديه الكثير من المتاعب والآلام التى تتراكم بعضها فوق بعض . وتظهر فى أية فرصة . . أية مناسبة . . ومرض حضرتك هو الفرصة السعيدة ، التى تهتز لها نفوسهم وتدمع لها عيونهم . . كما يحدث فى الزلازل والبراكين . . ففى باطن الأرض نيران والنيران لها بخار من الغازات ، يظل حبيساً حتى يجد مكاناً ضعيفاً

فى قشرة الأرض فيحطمه . . وترتجف الأرض ويتصاعد الغاز ويهبط المطر . . ومرضك هو هذه القشرة الضعيفة فى هذه العلاقة بينك وبينهم . . ولكن يبقى عذابك كما هو . . .

وأخيراً أناس عزيزون عليك . . أمك . . . حبيبتك . . زوجتك . . ستراك الواحدة منهن فتبكى لحالك . . أو تبكى عليك . . ولكن دماءك تغلى ، وحرارتك عالية . . والمعركة دائرة . . لأن المتحاربين عميان وصم وبكم وحيوانات لا تفهم ولا ترى ولا تسمع ماذا يدور خارج جسمك . تبكى الأم وتتعذب جداً لك . . ولكن يبقى عذابك كما هو . . فلا علاقة أبداً بين تأثرها لك . . وبين مرضك . . إلا كالعلاقة بين زكامى الآن وبين عدم وجود فلوس معك الآن . . وقد تتعذب أنت لعذابها وخصوصاً أن التى تحبك وتحبها ستبالغ جداً فى آلامك وتعبك . . وترى الزكام اختناقاً .وترى الصداع موتاً محققاً . .وعذابها سيعذبك . . ولكنك لا تستطيع أن تخفف لها عذابها ، ولا هى تستطيع أن تخفف لك عذابك أبداً . .

بل إن الإنسان أحياناً يحس أن الذين يحبهم كأسنانه وضروسه التى يأكل عليها و يعيش بها . . وأحياناً توجعه هذه الأسنان ويتألم لها ومنها . . ويتمنى أن تقتلع الأيام كل هذه الأسنان . . ويضع مكانها طقماً من الأسنان الصناعية حتى يريح ويستريح . .حتى لا يتعذب لعذابهم ، وحتى لا يعذبهم عذابه . .

ومع ذلك ، وأنت تتألم ، سيبقى ألمك مثل جلدك لا يتسع لأحد غيرك . . لأن مرضك هو معركة بين الكرة البيضاء والكرة الحمراء

والجراثيم والأملاح والفيتامينات والبناء والهدم .

لا أحد « يشاركك » فى ألمك . . بالنصف أو بالربع أو بالعشر . .
لا أحد « يقاسمك » وجعك . لأن الألم كالموت يتلقاه الإنسان وحده ! .

صدقني ، لقد جربت ذلك . . وبلا أسف !

خيوط قصة

البطل شاب فى السابعة والعشرين من عمره . طويل أسمر وطبيب ، نخرج حديثاً ويتمرن فى عيادة طبيب كبير . وهو طيب القلب . فيه رجولة وشهامة ، وله مبادئ يتمسك بها . . والبطلة سيدة فى الأربعين من عمرها لها أولاد . وزوجة الطبيب الكبير . وكانت زوجة قبل ذلك . وأحبت هذا الطبيب الكبير . وتركت من أجله زوجها الأول . وهى سيدة جميلة . رأت هذا الشاب والتفتت إليه ، بعقلها وقلبها وأحبته . وأحبها الطبيب الشاب .

أما الأسباب التى أدت إلى هذا الحب أو هذا الميل . فهى أن الطبيب الكبير قد أصبح مشغولا عن زوجته . ليس مشغولا بعمله ، ولكنه مشغول عنها بنساء أخريات ، ولا يخجل هو أبداً من ذكر هذه الحقائق ولكن الزوجة تحبه ، وتعرف نزواته ، وتعرف أنه مرهق وأن التغير أمر ضرورى للزوج . وأن الزوجة التى تريد أن تغير طبيعة الرجل وخصوصاً إذا كان طبيباً فناناً ، كزوجها ، فإنها تطلب المستحيل .

وأحست الزوجة شيئاً آخر . أن زوجها حريص على إهانتها أيضاً . أمام أصدقائه وأمام صديقاتها . وأن الغرض من هذه الإهانة هو لذة تعذيبها . فهذه لذة شاذة عند الزوج ، قد ظهرت أخيراً ولم تكن تعرفها من قبل . لقد كانت تجد هذه اللذة على صورة بخل شديد . فهو

حريص على أن يتلذذ لصراخها وهى تطلب منه المال لشراء الملابس والسفر وتغيير أثاث البيت . وكان يجد لذة فى الرفض .

فإذا رآها بملابس ممزقة ، وكذلك أولاده . . كانت هذه لذة تفوق لذة الجنس عنده . .

ولاحظت أيضاً أن زوجها يدفعها إلى أشياء أخرى ليست كريمة . . إنه يعرضها على أصدقائه ويغريهم بها . فإذا صدقوه ثار على الزوجة ، وتلذذ بعذابها وأمعن فى تعذيبها . . وأحست الزوجة أن الطبيب الكبير كما كانت تراه فهو كبير عندما يجرى عملية جراحية وهو يتقدم الأطباء جميعاً فى غرفة العمليات . ولكن عندما يجىء إلى البيت ، فليس طبيباً ولا ممرضاً ، بل هو مريض ، ومرضه لا علاج له . . إنه ليس كبيراً فى نظرها . وإن كان هو عظيماً ومشهوراً فى عيون الناس .

إنه ليس كبيراً عندما يأكل وعندما يجلس إليها وإلى أولاده . .

إنه إنسان عادى جداً ، بل أحط من الإنسان العادى . .

ورأت هذا الشاب . . إنه شىء آخر .

إنه شاب ، هو الآخر مخدوع فى الطبيب الكبير . إنه يراه كبيراً . .

وأخذت الزوجة تروى للشاب كيف أن زوجها هذا ليس شيئاً إطلاقاً . وأنه سافل وأنه منحط وأنه بخيل وأنه مريض وأن فيه وحشية الجراثيم الفتاكة .

وبدأ الشاب هو الآخر يتحرك . . فى هذه القصة . .

إنه يحب هذه السيدة الجميلة . إنه هو الآخر بلا تجارب . إنه

خجول ويتهيب الزواج من أية فتاة شابة ، تقرأ المجلات وتذهب إلى السينما وتعرف الرقص وأحبت قبله عشرات الشبان . .

أما الآن أمام سيدة . . هذا أفضل وأحسن .

وهى سيدة معروفة عظيمة . إن عشرات من مشاهير الرجال يطمعون فيها ويتمنونها لأنفسهم . وهو يكره أستاذه هذا فهو رجل أنانى . وهو لا يطلعه على كل أسراره . وحبه لزوجته انتقاماً منه وانتقاماً لها أيضاً . وزواجه من هذه السيدة . هو انتصار وانتقام معاً .

إن هذه السيدة قد فتحت حواسه جميعاً . . لقد تحولت حواسه إلى أكف ضارعة . . تنتظر ما يملؤها . وكانت هذه السيدة تملأ حواسه . إنها امرأة قد جربت الحياة وعرفت الرجال . ولعلها هى الأخرى قد قررت أن تتزوج هذا الشاب .

وبدأ الشاب يفكر ، أو يتراجع .

وكان تفكيره على صورة ندم . لأن ضميره قد صحا .

فهو يتساءل : لماذا قررت الزواج منها ؟ لأنها قررت الانتقام من زوجها والانتقام دفعها إلى أن تتزوج أحد تلامذته .

إنه الانتقام إذن ، وليس الحب . وجعل يقول أيضاً : ولكننى سأكون خائناً وجباناً ، إن الرجل قد ائتمننى على زوجته ، فإذا بى أخونه وأخونها . نعم أخونها أيضاً فإن ابنتها الكبرى تحبنى وقد وعدتها بشىء كالصداقة أو كالزواج . ولا بد أن الفتاة الصغيرة قد صدقتنى . وإذا كنت أنا ألهو وألعب فإن هذه الفتاة جادة ، ولا أريد أن أكون هذا الخادع

الخائن فى بيت واحد . . وفى بيت أستاذى الطبيب الكبير . .

ولكن الزوجة تبكى وتقسم أنها تحبه ، وأن الذى تشعر به هذا ليس انتقاماً . ولا هى رغبتها فى فضيحة الزوج ولا فى أن يتحدث عنه الناس . ولكنها تريد أن تكون زوجة للشاب الذى أحبته ، وأنها ستضحى بالطبيب العظيم وشهرته ومجده ، من أجل حبها .

ولكن الشاب يسأل نفسه : أليس هذا هو نفس الكلام الذى قالته يوم تزوجت الطبيب العظيم . . أليست هى نفس الكلمات ؟ وماذا كانت النتيجة . .

وأحس الشاب كأنه ثعبان كبير ، وكأن خيطاً صغيراً قد دخل فمه ثم كسر أسنانه كلها . . وأصبح ثعباناً بلا أسنان . . ثعباناً لا يلدغ ولا يقتل . لقد فوجئ الشاب بأن قصته هذه قد عرفها كل الناس والذى قال للناس هو الزوجة . لقد تحققت الفضيحة إذن : وعرف الطبيب الكبير ذلك . وتحقق الانتقام أيضاً . وعرفت الفتاة الصغيرة خداع الطبيب الشاب . وحدثت النذالة أيضاً .

وكان على الثعبان الشاب أن يمضغ الخيط الذى تكسرت به أسنانه . وأن يلزم جحره . . وينتظر الأبطال الآخرين لكى يكملوا قصته . . فقد قرر هو أن يختفى عند النصف الأول منها . .

ولكن الانتقام والانتصار والعطف والشماتة ، ماتزال تتردد فى أذنه عند كل مرة تتحدث إليه هذه الزوجة فى التليفون فى الساعات الصغيرة من الليل . .

ولم تكمل القصة بعد .

حياة . . كلها طرب

أعصابى هذه الأيام كالأسلاك الشائكة والشوك قد اتجه إلى لحمى ودمى . . إن هذه الأسلاك لا أستطيع نزعها منى ، إنها تشبه جلد القنفذ الذى لبسته بالمقلوب . . وفى كل ليله تدور المعارك تحت نافذتى . . . أصوات وصراخ . . وكلها تنزل فوق دماغى كالطوب . وكل طوبة توجع لأنها تدق شوكة فى جلدى . . فأقفز من فراشى إلى النافذة أفتش عن مصدر الصوت الذى أسمعه ولا أراه . . إنهم ناس قد تمددوا فوق الأسطح بين الأقفاص والصفائح والبلاليص . . إنهم كالزواحف ، حياتهم تراب ، ووجودهم زبالة ، وكلامهم طوب . . وأحياناً أقف أبحث عنهم . . إننى لا أحسدهم على نومهم العميق . . حتى نومهم له صوت يشبه صوت الضفادع وقد انحشرت فى أفواههم . . إننى لا أقوى على مقاومة هذا الطوب . . لا بإقفال النافذة ولا بوضع المخدات فوق رأسى . . فهو كالقضاء والقدر . . إنه طوب كالصواريخ الموجهة لى وحدى . . ولا أملك إلا أضعف الإيمان وهو مقاومة الطوب باليد واللسان ، أى بالكتابة !

وتبدأ المعارك الليلية بهمس خفيف يشبه أقدام الجنود وهم يمشون على بطونهم فى الخطوط الأمامية . . وبعد ذلك تندلع النيران . . فتنطلق « عرسة » صغيرة بين الدجاج . . وتطاردها عبارات عالية . . حوش يا جدع . . امسك عندك . . يا بنت ال . .

والكلام يتجه أول الأمر إلى العرسة . . ثم إلى الزوجة النائمة . . ويهدد

الزوج بإلقاء أولاده من فوق السطح . . وتنفتح النوافذ المجاورة . . ويبدأ الجيران بإلقاء كلام كالحجارة : يا راجل نام .. يا أخى خليك للصباح .. الصباح رباح . قلقتم نومنا .. الله يخرب بيوتكم . .

ويتخلى الرجل عن شتيمة زوجته ويتحول إلى ما هو أهم .. إلى شتيمة أصحاب النوافذ . . وتنفتح نوافذ أخرى . . وتتراشق النوافذ والأسطح بالشتائم وتتكسر بعضها على بعض – كما يقول الشاعر المتنبى . . وفى الأرض يعلو صوت عسكرى الدوارية وهو يقول : مين هناك ... يا ناس اتهدوا . . حد لاقى نوم . .

ويعود التشابك بالشتائم : وانت مالك . . مالى ازاى . . ناموا . . نام انت . . . اسكتوا . . اسكت انت . . هو ده حى ياناس . . روح اسكن فى جاردن سيتى . . اخرس . . اخرس انت !

. . . وأنا أيضاً ! وقبل أن تصبغ الشمس الأفق بلونها الأحمر ، يكون الأرق قد سبقها إلى صبغ عينى . وقبل الفجر بساعات تبدأ مظاهرة من نوع غريب . . . كل فجر ياناس . . يمر رجل صوته كحجر الطاحون الذى يدور على قمح نصفه من الزلط . . وينادى : يا سى عبد الله . . ياسى اسماعين وحدوه ! .

إنه يناديهم للصلاة . . ويتكرر النداء عشرات المرات ، كأنه يريد أن يتأكد من أن الناس جميعاً قد قاموا من الفراش ليشهدوا على تقواه وعلى ورعه . . وتجاريه أصوات عبد الله وإسماعيل وهى مترددة بين النوم واليقظة ، بين الطاعة والعصيان ، بين لعن أبيه والاستسلام . . .

ولا أستطيع بعد ذلك أن أنام دون أسمع صوت بائع الفول . . إنه شاب بلدى أنيق . . له شارب يقف على شعرة واحدة . . وله طاقية قد استقرت على جانب واحد . وينادى هكذا : ياحلاوة اللوز . . والنبى ما نام الليل . . سهران . . النوم للعواجيز . . فول شباب قوى . . اللوز .

وحضرته يعاكس ابنة الجيران التى لا أعرف لها مكاناً . . .

والضياء والضوضاء تزداد كلما ارتفعت الشمس . . وكلها تتلاشى مع انطلاق الترام الذى يحاول اقتلاع القضبان والعجلات كل يوم . . كأنه يريد أن يجرى على الأرض حافياً بلا عجلات ولا قضبان .. وكل يوم أقسم أن أترك هذا البيت .. ولا أزال عند قسمى منذ عشر سنوات .. وأنا لا أستطيع أن أضع القطن فى أفواه الناس . . ولا أستطيع أن أعطل الورش الناجحة والتى تدق الحديد الساخن والحديد البارد تحت نافذتى فى « أخبار اليوم » . . والتى تجعل من رأسى سنداناً ليناً . . وأظل أرزح تحت الحديد طول النهار ، ويظل قلمى يرزح تحتى ليلا ونهاراً . . إنه عكازى الذى أهش به على غنمى . . فإذا جاءت غنمى عرجاء أو مكسحة فلأننى أنام فى بولاق وأعمل فى عشش الترجمان . . ولأن حالى ينطبق عليه ما تقوله أغنية صباح : طوب يا قلبى . . طوب يا قلبى طوب . وكل ماأستطيع أن أعمله هو أن أضع القطن فى أذنى لأنعم بالهدوء الذى كان يعيش فيه العبقرى الأصم أديسون ، مخترع المصباح الكهربى . . . وهى خطوة إن شاء الله فى الطريق الذى تتربع فى نهايته الآنسة هيلين كيلر . . . العبقرية الأخرى التى لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم !

الفكرة التى طاردتنى

كنت على موعد مع غروب الشمس فى الإسكندرية . وأنا حريص على المواعيد وخصوصاً إذا كان هذا الموعد مع فتاة . والشمس ما تزال أجمل فتاة فى عالمنا ، إنها حواء الأولى . . إنها مصدر حياة كل حواء وكل آدم ، وكل حواء فى النبات والحيوان . . إنها أول كل شىء فى عالمنا الصغير . . وانطلقت من القاهرة على عجلات سرعتها مائة كيلو متر .. وكنت أجلس إلى جوار عجلة القيادة . . وبدأت السير بهمة وحماسة وأعراض ملل وأعراض خوف ولكن حاولت أن أنسى هذا كله والتفت إلى الطريق أمامى . وإلى جوارى جلس صديق هادئ لا يتحدث إلا قليلا .. وفى المقعد الخلفى جلس صديقان .. أحدهما يدخن صامتاً .. والآخر ينام كطفل بلا هموم ولا متاعب . . وهكذا بدأت رحلتنا هادئة سريعة . .

وفجأة قفزت إلى رأسى فكرة سخيفة . ... فكرة مؤلمة . . . وأحسست كأن ذبابة دخلت عقلى . . وراحت تزن وتطن . . ولا أدرى كيف أطردها ولا كيف أقتلها . . ورحت أطردها بأفكار أخر مضادة . . كأنها « الفليت » أو ال د.د.ت.. ولكن الذبابة لم تسكت ولم تكف عن الحركة وعن خربشتى من الداخل . . الفكرة هى : أن قلبى حاسس أننى سأموت

فى هذا الطريق . .

وأخذت الفكرة تقوى وتقوى . . ولم يحدث لى هذا أبداً . وقلت لعل رادار القلب قد أحس بشبح الموت وهو على بعد دقائق أو أميال منى . . هل أرجع ؟ أرجع إلى أين ؟ . . لا هرب من الموت . لا هرب منه وأحتمى بمن أو بماذا ؟ هل أعود بهؤلاء الأصدقاء الذين بدأوا يضحكون ويمزحون وكأنهم يعرفون ما يدور بخاطرى ؟ .

وتساءلت : ولماذا جاءت هذه الفكرة ؟ ومن أين ؟ هل أنا متعب . . إننى فعلا لم أنم ليلة أمس . هل أنا كاره لهذه الرحلة . فعلا أنا أكره قيادة سيارتى مهما كانت المسافة . . وهذه المسافة طويلة وسخيفة ومهلكة . . إذن التفكير فى الموت هو تفكير فى الهرب التام من هذه الرحلة ومن أى شىء آخر . أو أن هذه الفكرة هى فكرة مستجدية . . فكرة متسولة فكرة تريد أن تستدر شفقة هؤلاء الأصدقاء لكى نعود إلى القاهرة بدلا من السفر إلى الإسكندرية .. وجعلت أسأل نفسى وكيف يكون الموت فى هذا الطريق ؟ سيكون بأن تنزلق سيارتى على الرمال فتنقلب . . وتكون نهايتى . . وحياة هؤلاء الذين يضحكون . . أو بأن نصطدم بأية سيارة أخرى . . أو بأن أموت أنا وحدى دون رمال ودون حوادث . .

وكأنى أقاوم هذا كله . . بدأت أعتدل فى جلستى وأتنفس بهدوء . حتى يبقى القلب نشيطاً يدق . . ومددت يدى إلى الراديو ففتحته . . لأرفع روحى المعنوية . . ثم خففت من السرعة وانتبهت جيداً إلى حافة الصحراء . . وإلى السيارات القادمة . . فكل سيارة هى قذيفة موجهة إلى . .

موجهة نحوى أنا بالذات . . وأنا أعرف من الذى أطلقها . .

وشعرت بعد ذلك أو قبل ذلك لا أدرى . . بشيء من الهوان . . بشيء من الضآلة . . فعربتى ليست إلا نملة تجرى فوق ظهر أفعى أسود تمدد من القاهرة إلى الإسكندرية . . وأحسست فعلا بشيء بين الحياة والموت ، بين الوجود والعدم ، بشيء من الضياع . .

واعتدلت مرة أخرى فى جلستى وقلت : إن هذا التفكير فى الموت هو وحده الذى سيجعلنى أموت ، هو وحده الذى سيشغلنى عن القيادة فأصطدم بأية سيارة . . ولذلك يجب أن أطرد هذا التفكير . . أن أنحى عن رأسى هذا الستار . . هذا الضباب وأن ألتفت إلى الطريق . . لكى أموت مفتوح العينين . . .

وكأنى أحسست أنى لم أحقق كل شيء فى نفسى قلت : عندما أصل إلى الإسكندرية سأنزل البحر . . سأستحم . . إننى لم أنزل بحراً فى حياتى . . لم أمد له يداً ولا رجلا . . إن مياه كابرى لم توقعنى فى غرامها ولا أمواج دوفيل ولا فتيات كان ونيس . . ولم تعجبنى عبارة «عندما أصل» . . فقد وصلت . . هذه الأشجار ، هذه المياه على الجانبين . . هذه الرطوبة . . وضيق النفس . . وباعة التين على الجانبين . . لقد وصلت .

وأدخل فى الشوارع ولا أرى علامات المرور . . ماذا بعد الحياة . . لا يهمنى أن تمتد يد عسكرى المرور ويكتب ما يشاء من المخالفات . . إنها ضريبة الحياة . . إنها الفرحة بالنجاة . . ولم أسأل نفسى : النجاة

من أى شىء ؟

وعلى الكورنيش . . أحسست بشىء غريب . . أحسست أن الهواء يفصل لى ملابس كلها من قماش مبلل . . وأن الهواء كأى ترزى يستخدم الدبابيس لتظل الملابس على جسدى فهو يضع الدبابيس فى كتفى وفى جنبى وفى ظهرى وفى صدرى . . وظللت أنا أتكرمش وأتقلص حتى صغر حجمى . . ولكن الترزى لا يختصر ملابسه . . إنه يختصرنى أنا . . فأنا لا أشعر بقدمى اليسرى ولا ذراعى اليسرى . .

وتعبت من الطريق ومن الهواء . . وذهبت إلى غرفتى لأستريح . . لأستريح من الفكرة التى طاردتنى من القاهرة إلى الإسكندرية . . وعندما وضعت رأسى على المخدة تنبهت إلى أننى طردت فكرة الموت بالاستسلام له . . أليس النوم موتاً صغيراً ! !

وهربت الذبابة . . وبدأت أضيق من رائحة الد. د. ت !

حرف البيب !

اليوب – أى اليوم – شعرت أنى كجزيرة قبرص . فهناك حصار شديد حولى . . حصار يخنقنى . . هناك أيد تمسك بعنقى من تحت الجلد . . وإننى لا أستطيع التنفس . . أحسست أن أنفى كقناة السويس وأن باخرة قد انفجرت فيها . فأصبح المرور صعباً جداً . . وآمنت بأن التنفس تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المزكومون !

الطبيب يقول لى : لاعلاج إلا النوم فى البيت . . .

ولزمت البيت وأقفلت الباب والشباك وتغطيت باللحاف . ووضعت رأسى فى طاقية . ووضعت الجوارب فى قدمى . . وارتفاع درجات حرارتى معناه أن هناك مقاومة هائلة فى جسمى وجعلت ألقى بالسوائل والحبوب لقوات المقاومة . . وشعرت أننى أحارب فى خنادق من البطاطين وأننى أنتظر نهاية المعركة . . فكلما شعرت بخيط من الهواء يصلنى بالعالم الخارجى تأكدت أن قوات المقاومة قد شقت طريقاً إلى عالم الحرية . . وكلما أحسست أن الهواء لا يدخل إلا بصعوبة أيقنت أن جزيرة قبرص بسبيل أن تستسلم . . فالمدافع تدق رأسى . ونيران البطاريات تلمع فى عينى . . وصفارات الإنذار فى أذنى . . إن هناك مؤامرة على حياتى وإن هناك طاغية يعطينى الهواء بالبطاقة . سنتيمتر واحد كل دقيقة .

وضقت بظلام الغرفة وبأكداس الأغطية . . مللت حرب الخنادق . ولكن لكى أفوز بالحرية لا بد من القيود ولكى أنعم بالنور لابد من ظلام

الخنادق . ولكى أعرف قيمة النسيم العليل يجب أن أمر بمحنة الهواء المخنوق . . هذا ثمن الحرية !

حتى الهواء القليل الذى أمتصه أو أغتصبه بدا يخرج مطروداً على هيئة سعال . . بل إنه لم يكن هواء بل كان شيئاً ملموساً محسوساً خشناً كالمبرد يأكل حلقى . . ويلقى بنشارة حلقى حبوباً على شفتى . .

وأضع الترمومتر فى فمى وأجده قد زحف إلى الأربعين . . وبدأت أحلم وأفكر فى درجة حرارة عالية . . وتخيلت أناساً لا أدرى ما الذى جمعهم فى هذه اللحظات العصيبة . . أرى وجهاً باسماً . . وأرى عينين زرقاوين وأسمع صوتاً ناعماً وأعود برأسى إلى الوراء لأقول لها : وداعاً . . ثم أعتدل فى جلستى وأقول : لا وداع . . بل سأقاوم . . سأقاوم ماذا ؟ سأقاوم ذكراها . سأقاوم الطاغية الذى احتبس فى داخلى وحبسنى .

ولاحظت أن الإنسان فى هذه الدرجة من الحرارة لا يفكر فى شىء له قيمة . . كل ما يفكر فيه هو كيف يتخلص من جحيم الحرارة والاختناق.

وبدأت أستعرض وجوه أناس يعيشون فى هذه الدرجة الحرارية دائماً رأيت أديب إنجلترا « جراهام جرين » . . إنه مصاب بنوع من الزكام الذى يصيبه فى مواسم الورد ويفقده متعة الشم .. والأديب الوجودى ألبير كامى .. إنه هو الآخر كان يلبس أكثر من بلوفر فى الصيف وفى الشتاء يلبس اثنين تحت القميص واثنين فوق القميص ويلبس البالطو أيضاً ويضيف إليها جميعاً كميات من الخمر تملأ حماماً صغيراً . . ومع ذلك فهو سيد المفكرين . . وكاتب إيطاليا « كورتسيو ملبارته » كان يقول :

إن هناك أفكاراً لا يمكن أن تذوب إلا فى درجة حرارة عالية . . فى عاطفة قوية من الحب . . من الكبرياء . . من التضحية . . لابد من الحرارة وعلى الفنان أن يساعدها بالوقود . . بالخمر أو بالمرض . .

ومع ذلك لم أتمكن من « إدارة » فكرة واحدة فى رأسى . . كان الإنسان يفكر بأنفه . . والذى قال إن انف كليوبطرة قد غير التاريخ ، لم يكذب كثيراً . . إن أنفى الذى فقد وظيفته أياماً ، قد عطل تفكيرى نهائياً . .

والمزكوم لا يستطيع أن يقابل الناس أو هكذا أنا . . . فى يده منديل ، وفى جيوبه مناديل وفى عينه إحمرار وفى صوته ذبحة وفى نفسه قرف . . ويخشى أن تنتقل عدأوه إلى الناس . . ولا زيارات ولا مقابلات . .

ثم انتظار فارغ . . انتظار فى الفراش حتى تنتهى المعارك فى داخله بين جيوش الزكام وبين جيوش الصحة . . ولم يكن أمامى إلا أن أترك نفسى ميداناً وأنشغل عن النتيجة لأشياء أخرى . . أى أشياء . . وقد حاولت أن أتسلى بحذف حرف الميم من كل ما أقوله ولاحظت أن حرف الميم يملأ معظم الكلمات . وأنها محاولة يائسة . ولو كنت ملكاً طاغياً وكانت إصابتى بالزكام مزمنة لأصدرت مرسوماً بإلغاء حرف الميم !

وأحسن عبارة تصور حالتى الآن بالضبط هى التى تقول : إننى أقوب بن النوب أناب تانى . وقداختفى حرف « البيب » نهائياً !

اتس . . اتس : لا مؤاخذة فإننى ما أزال أعطس !

عذاب كل يوم !

كان رأسي ليمونة وأنا أعصرها كل يوم . . وتبقى الليمونة فلا يتساقط منها شيء . ولا أفقد الأمل . . .

كان رأسي ساعة واقفة .. أهزها لكي تتحرك تروسها وتدور عقاربها . فلا أسمع لها صوتاً ولا أيأس . .

كأن الفكرة أو الفكرتين اللتين فى رأسي تشبهان « زهر » الطاولة . . أهزهما يميناً وشمالا « وأقرص عليهما » ثم ألقى بهما على الورق فلا أجد عليهما آية علامة . . وأتعكز من جديد على أملى . .

وأنهض إلى الباب والنافذة وأقفلهما فقد تكون أفكارى كالوطاويط تخاف من النور . . أو يكون قلمى قد جف ولا بد أن أغمسه فى سواد الظلام . . وأسمع حولى الهمس والكلام والضوضاء ، وكلها مختلطة بعضها ببعض وأرفع قلمى إلى أعلى كأنه « إيريال » لعله يلتقط منها شيئاً . .

وأحياناً أتوهم أن كل الأفكار التى فى الدنيا باقية لا تزول وأنها تملأ الجو وأنها تدور حولى كأنها أسطوانات . . وهذه الأسطوانات فى حاجة إلى إبرة لكى تنطق . . . وأجعل قلمى هو هذه الأبرة .. ومع ذلك لا أسمع أى شيء .

كل شيء حولى كلام فى كلام .. الناس ألفاظ وجمل مفيدة وغير

مفيدة . . وكلها تدخل رأسى بلا ترتيب . . ويتحول رأسى إلى استوديو تصوير ورسم ونحت . ملىء بلوحات وتماثيل وصور لا أعرف أصحابها . وأحاول أن أميز بينها جميعاً . وليست هذه المقالات إلا صلات تعارف بين أصحاب هذه الآثار الفنية جميعاً . .

ومشكلتى كل يوم هى كيف أرتبها الواحدة وراء الأخرى . . فى خيط ، فى حبل . . فى شريط سينمائى . . كيف ؟ لا أعرف. ولكن لا أستبعد أن يكون العلم الحديث قد وجد وسيلة لا أعرفها . ولذلك لن أفقد الأمل أبداً . وفى كل يوم أكتب خطاباً بهذا المعنى وأمزقه :

« عزيزى على أمين . . العلم الحديث الذى تتحدث عنه كل يوم . . والزراير التى تأتى بالمال والسعادة والراحة والمصانع التى أنشئت لصناعة قطع غيار لعقل الإنسان وقلبه وشحنها بالذكاء والحب والسلام . . وإيمانك بالتقدم المطلق للعقل الإنسانى ألم يهتد بعد لحل مشكلة مثل مشكلتى هذه ؟

« إن مشكلتى هى أننى أريد أن يخرج الكلام من رأسى كما يخرج الحرير من رأس الدودة . . مع فارق واحد هو أن الحرير يخرج من رأس الدودة "سادة" وأنا أريده "مطبوعاً" ملوناً مشجراً . . وأنا لا أستبعد أن يتحقق ذلك قريباً .

« ولذلك أتقدم بطلب أريد أن تحققه لى فى "ليلة القدر" التى فتحتها "على الآخر" لكل قرائك . . وهو حجز نسخة واحدة من هذا الجهاز الذى يوضع فوق الرأس فيخرج الكلام مكتوباً كما يخرج من أحشاء أجهزة "التكر" وأنا أعلم أن ليلة القدر مغلقة فى وجوه أصدقائك

ولكن عندما تصل هذه الأجهزة سأتحول إلى قارئ وأتفرغ للتفكير المطبوع ».

... أما الآن وإلى أن يصل هذا الجهاز فسأظل أهرش فى عينى وفى أذنى وأمر بيدى على وجهى تماماً كما تمر على وجه الراديو تضبط الموجات .. فلا أسمع إلا الصفير وإلا الوش وسأظل أعصر الليمونة الجافة فتسقط منها مثل هذه البذور التى قرأتها الآن !

... كن عادلا ، إن استطعت !

مع آخرين استمعت إلى هذه القصة ، وحولى وحولهم كل شىء ملون . الأضواء والفساتين والعيون والأكواب والعواطف وحتى الدموع .

وقال بعضنا : مظلومة ! وقال بعضنا : بل زوجها هو المظلوم !

لماذا دعيت مع آخرين ؟ لم أعرف ، ولم أفهم .

ولكن بدأت السيدة قصتها مباشرة . بدأت فاعتدلت فى مقعد عريض وثير غطت جانباً منه والجانب الآخر احتله فستانها الحريرى وحقيبتها وعلبة سجائر ركعت أمام ولاعة ذهبية .

وتقاربت الأكواب وتلامست ورنت الحروف الأولى من : فى صحتك .

وقبل أن تتزوج هذا الرجل . لم تكن تتصور كيف تبدأ العلاقة بين رجل وامرأة .. إنها تريد شيئاً واحداً ، هو أن ينقذها رجل شهم . رجل فارس . ستحبه . ستعبده ستكون خادماً له . جورباً فى رجله منديلا فى جيبه . وسادة تحت رأسه . وامتدت يد إليها . لم تنظر إلى اليد . لم تعرف طبيعتها . لاقوتها ولا ضعفها . إن فرحة النجاة قد أذهلتها . فتعلقت باليد . وخرجت وعانقت صاحبها . وانحنت على يده تقبلها . وتضع خاتمين واحداً فى يده وواحداً فى يدها . . هى التى . . فعلت وليس هو .

إنها غنية والرجولة لا تقدر بثمن .

ولم يطلب منها أن تعطيه كل ما تملك من بيوت وأرض . . ولو طلب لفعلت . .

ولكنه لم يطلب . لو طلب إليها بعد شهر واحد من الزواج أن تأذن له بالزواج من امرأة أخرى لوافقت . ولم يطلب منها إجازة ليستريح فى مكان بعيد . لا بعد شهر ولا بعد سنة .. إنها شابة فى الثانية والعشرين وهو شاب فى السابعة والعشرين ، إنها بلا تجارب وهو أيضاً بلا تجارب .

لقد تعلمت القراءة وكتابة القصة والتردد على دور السينما ، والاستماع ساعات إلى الموسيقى والبكاء ساعات عند النافذة وفى التليفون .

تعلمت هذا كله من أجله وبسببه .

وسؤالها الذى تكرره فتقف له الأكواب فى أيدينا : ماذا تستطيع أن تفعله فتاة شابة حساسة مثقفة مع رجل تحبه . لا يقرأ ولا يكتب ولا يجد متعة فى أى شيء ولا يجلس فى البيت ولا يسمح لى بالخروج أو بزيارة أحد ولا يعطينى حق الحياة الإنسانية ! إننى مع الناس ولست من الناس . مع الأحياء ولست من الأحياء ؟

وتبكى ، وتتلون دموعها من وجنتيها وشفتيها ، وفستانها . . إن جسمها وبيتها يروى قصة أخرى ، لا تعرف الدموع ولا الصراخ . . وإنما تعرف الموسيقى والأحلام وتعود تروى قصتها فوق . فوق كتفيها فتسحب هى العيون من جسمها إلى رأسها وتسمع منها : ما فائدة البكاء ؟ أنا أعرف أنه لا فائدة . . تماماً كالفيلسوف اليونانى الذى سألوه : لماذا تبكى على

ولدك . مع أن البكاء لا يفيد ؟ فأجاب : لهذا بكيت ! وأنا لهذا أبكى . ولأن الدموع لا تفيد فأنا أبكى على دموعى الضائعة .

وزوجها لا عيب فيه . . شاب وسيم فيه رجولة وغنى أيضاً ويحبها، ولكن حبه على طريقته هو : إنه يحبها ولهذا تزوجها ، يحبها ولهذا لا يسمح لها بالخروج من البيت . ولا زيارة أحد ولا أن يزورها أحد . إنه يحبها ويخاف عليها . ولذلك حبسها .. وهو يحبها ولذلك لا يجب أن تناقشه أو تحاسبه . أو تجلس معه على مائدة أو تتقدمه إذا سارت فى الطريق، ولا بد أن تنجب . . أولاداً . والذى يراها لا يصدق أنها تزوجت أو أنجبت أولاداً . بل يقول : يجب أن تتزوج حالا وأن يخطفها أى إنسان ويهرب بها إلى مكان بعيد . . وهذه هى أصابعها خلت من الخواتم . ومن أى أثر لدبلة خطوبة أو زواج .

وحاولت هى أن تقنع زوجها بأن يعاملها معاملة أخرى . فالحب ليس حالة نفسية يحتفظ بها الرجل فى دمه . كما يحتفظ بمصحف فى جيبه . . ولكن الحب كلام وأفعال وخروج وسهر وضحك وحنان وخناق وتهديد بالانفصال وتهديد بالطلاق وقسوة ورقة . ويد ترتفع لتضرب فإذا هى تلين لتعانق . .

وكان رد الزوج أن هذا كلام قصص وأفلام . .

ولكن القصص لها أصل . . والأفلام واقعية .

وكان الجواب : أنا كده .

طلبت إليه أن يعرف أية فتاة أخرى . . وأن يحبها . . وحينئذ يعرف

ماذا تقوله المرأة إذا أحبت . . ويعرف ماذا يحس به عندما يحب . . كيف يشعر بالزمان والمكان .

وكان الجواب أنت لا تريدينى ، ولكنى أريدك ، وسأبقيك هنا ، ولن تخرجى من هذا البيت إلا ميتة .

وتقول إننى أحبه ، وإنما أريد أن أحرك عواطفك عواطفه ، والغيرة كاللص إذا دخل البيت أحس صاحب البيت بالخطر ، وبأن أمواله مهددة ، وأن حياته مهددة وزوجته وأولاده كل هؤلاء سيضيعون منه . . وأنا أريد أن أجعلك تهتز ،أن أجعلك تخاف ، أن أهزك لتتحرك عقارب الغيره فيك . .

وكان يضحك . . وكانت هى التى تتحرك وتهتز وتغار عندما تتصور أنه سيحب امرأة أخرى وأنه سيفكر فى الزواج منها . . ثم تبكى وتنزل دموعها . وتشهق أيدينا وتتدافع إلى التقاط دموعها .. وكلما حاولنا أن نعلق على الدموع ونتجه إلى القصة الأخرى التى يرويها ثوبها وعطرها ودخانها صدتنا دموعها وأعادتنا إلى مكاننا من القصة فوق حيث تخرج من شفتيها .

وبدأت تسأل زوجها : ماذا تفعل لو وجدتنى يوماً وقد تعلقت بذراع رجل .

وقال زوجها : ماذا تقولين ؟ أليس هذا عيباً . . ؟

فتقول له : افرض هذا .

فيقول : مستحيل !

وتعود تقول : ووجدته يقبلني .

ولا يصدق الزوج أن هذا هو كلام امرأته ، وينهض واقفاً أنت مجنونة!

وتمضي قائلة : ووجدته يعانقني عناقاً طويلا . . وفى يده مسدس يهدد كل من يقترب مني ويلقى بدبلة الزواج فى الأرض . .

تقول هذا وهى تتراخى وتترامى فى مقعدها وتحس بالسعادة وهى تتطلع إلى زوجها وقد غضب . إنها لم تره أبداً يغضب ، وقد احمر وجهه ، ولم تر هذا اللون أبداً . . وقد شتمها ، وهى لم تسمع إلا أدبه وإلا حياءه الشديد إنها تريده هكذا دائماً . . هكذا دائماً .

وكان لها ابن عم وخرجت معه . وتعمدت أن تسير به أمام المقهى الذى يجلس عليه الزوج وكانت ترتعد وهى تفعل ذلك . . كل شيء فيها يرتعد ، ولم يكن زوجها هناك . وانتظرت أن يناقشها أن يحاسبها . . ولكن أحداً من أصدقائه لم يخبره . . ورآها زوجها مرة وسكت . .

ومع رجل آخر وثالث . . كان لعباً أول الأمر . وكان نزهة بعد ذلك وكان غراماً وهياماً . . وطلبت إلى زوجها أن يطلقها . . إنها تحبه ولكن الرجل لا يشعر بها ولا يدرى ماذا يجب أن يفعله إنسان نحو المرأة التى يحبها أو التى تحبه . . إنه رجل بلا خيال ولا شاعرية .

وحدث بعد ذلك شيء نستطيع أن نتنبأ به من ارتعاش جسمها كله ومن دموعها ومن السيجارة التى سقطت على البساط . فتزاحمت عليها الأيدى تنقذها . وتنقذ البساط منها . . وانتشلنا السيجارة وكانت ما تزال مشتعلة ولكن عندما اصطدمت بالمنضدة تساقطت نيرانها وانطفأت . . .

وظلت السيدة مشتعلة بالذكريات والحزن والأسى أما الذى حدث فهو أن زوجها ذهب إلى عزبته . وهناك انتحر وانطفأ . .

وكان ذلك منذ ستة شهور . . وضمير الزوجة الذى استقر فى هذا الجسم الجميل الذى لا يستقر فى هذا الثوب ، أو فى هذا البيت . ضميرها يعذبها . إنها تحس أنها قتلت الزوج مع أنها لم تقصد إلا إشاعة الحياة فيه من أجلها ومن أجله ومن أجل أولادهما . والمطلوب منا أن نقول إنها بريئة من دم هذا الرجل الذى مات وأوصى لها بكل ما يملك . فزاد فى عذابها وألمها

وحكمت المحكمة ببراءة المتهمة وذلك بعد أن جلست للمداولة مع المتهمة وأكلت فى بيتها عيشاً وملحاً وملأت منها العين والفم والأنف والقلب.

فما رأى الذين لم يروها ولم يجلسوا إليها ولم تمزقهم دموعها .

إن هذا البيت الجميل يتحدى العدالة . !!

عم سيد !

فى بيتنا . وتحت سلمنا . عجوز يقاوم جاذبية الأرض بعصا قديمة . اسمه عم سيد لقد ارتدى كل ملابسه . ولف حولها حزاماً من الجلد . وعلى رأسه وضع طرطوراً ووقف مرتجفاً يقاوم البرد . إنه يشبه « بابا نويل » ولكن بعد أن وزع هداياه ونزع ملابسه وأعطاها للأطفال فى كل مكان ثم نسج من الطين ملابسه وذراعيه ورجليه .. ويشبهه بعد أن هجم عليه ألوف اللصوص فسرقوا بصره وسمعه وحياته . . وقطعوا صلته بكل الناس . .

ولكن عم سيد لا يزال يقاوم اللصوص المجهولين . يقاومهم بصفائح كالمتاريس مملوءة بالتراب . وفى التراب قطع معدنية تلمع . إنها كنوزه . ففى كل ليلة يخرجها ويمسحها ويدفنها من جديد . يدفن نقوداً جديدة رنانة . . كأنه يكرر عملية الوأد القديمة أيام كان الناس يدفنون الفتيات أحياء . . أو لعل عم سيد يهون على نفسه مشكلة الموت والدفن . فهو يمثل عملية الدفن تحت التراب كل ليلة . ثم يقف بعصاه يدفع عن نفسه الكلاب ، فهو يتوهمها أرواحاً شريرة . وكثيراً ما اختلط عليه أمر الكلاب والقطط ونحن . وراح يضربنا ونحن نعذره لأنه لا يحسن القراءة بيده. إنه لم يتعلمها إلا أخيراً . . !

فهو لا يقرأنا بأصابعه وإنما بعصاه . فهو يمر بها على الحائط وعلى الأرض وعلينا . .

وفى الليل .. فى كل ليلة يقفل باب غرفته .. ويتلمس ثوبه الجديد . الذى كان جديداً والذى لا يلبسه إلا فى الأعياد . وحذاءه الأحمر سابقاً. وطاقيته الشبيكة . وزجاجة فيها عطر لم يشمه أحد . ومرآة صغيرة تراه ولا يراها . وفى حضور هذه الكنوز ينام بعد أن استراح إلى أن اللصوص لم يحملوها معهم .. إنه يفعل تماماً ما كان يفعله الفراعنة من ألوف السنين.. لقد كانوا يدفنون كنوزهم معهم فى انتظار الرحلة إلى الشاطئ الثانى وكذلك عم سيد . . إنه ينتظر رجلا . . إنه ينتظر « بابا نويل » آخر . . يأخذ ولا يعطى ، يأخذ الطفل وأباه . . الشقى السعيد . . . إنه ينتظر هذا المحصل . . محصل النور والماء والهواء . . الذى يحصلنا ويقبضنا وهو يقرأ فى كشف لا نراه ولا نعرفه . . إنه ينقلنا من هنا إلى هناك . .

لقد أخذ من عم سيد الكثير . . ولم يترك منه إلا الحروف الأولى .. تركه عملة ممسوحة سيلقى بها فى « حصالة » لا ترد أحداً وتتسع لكل أحد . . فوق السلم أو تحت السلم !

حفنة تراب

فى بورسعيد قابلت كثيراً من الناس جاءوا من الشمال والجنوب . . كلهم ليروا ماذا فعل العدوان بهذه المدينة الآمنة . إن كل شىء هادئ فيها . الناس والحياة ، والأنقاض ترتفع من الشوارع ، ودخان البارود قد طغت عليه رائحة البحر ، والناس ينزلون من القطار يبحثون عن تمثال دىلسبس . . لقد تحطم التمثال وسقط فوق زورق صغير وانكفأ على وجهه . . إنه غارق على سطح الماء . وتمثال الجندى المجهول قد انفصل حصاناه .. وألقى أحدهما فى الشارع وامتطاه الناس والتقطت لهم صور ، والآخر فى منتزه صغير . .

والشوارع امتلأت بالبيريهات الزرقاء يتحرك تحتها جنود وضباط . إنهم الكنديون أبناء عم الإنجليز والأمركيين ليسوا صغار السن كالدنمركيين والسويديين . بل معظمهم على أعتاب الأربعين والخمسين . وهم لا يتحدثون إلى أحد من الناس . ولكنهم يداعبون الباعة المتجولين .

وكل شىء سيتغير فى هذه المدينة . فالشوارع تنظفها السيارات والفئوس تعمل فى إزالة الأنقاض . ولن يكون هناك خراب ولا دمار . سيختفى التراب الذى أغمض العيون وسد النفوس . تماماً كما اختفى من المدن الألمانية . لقد رأيت ميونخ ودسلدورف ورأيت هانوفر وهمبورج ، كلها

صربت بمئات الألوف من القنابل . ولكن اذهب إليها الآن وأرنى أثراً واحداً لقنبلة أو طوربيد . . لا شيء ، قامت البيوت . أو على الأصح قام الناس فقامت البيوت !

وستمتلىء محلات بورسعيد بالزبائن ، والشوارع بالسائحين من كل بلد فى أوربا وآسيا . . ولن تقف طويلا زوارق الصيادين . ولن يطول تثاؤب عمال الأرصفة ، سيكون هناك بحر – كما يقول أبناء بورسعيد . وهم يعنون بذلك الحركة والتجارة ، فإذا كانت هناك حركة وتجارة فهذا هو البحر . وإذا لم تكن هناك حركة فالبحر أرض يابسة . إذن فليس هناك بحر .

وكان الليل بارداً فى بورسعيد . والبرودة تعلن حالة الطوارئ فى كل الشوارع حتى البوليس الدولى قد توارى فى البارات . إنهم وحدهم يشربون ويضحكون ولا توجد بينهم ولا معهم امرأة واحدة . والتعليمات صريحة بأن يلتزموا الأدب والوقار حتى إذا شربوا . . إلا إذا ذهبوا إلى الصحراء فهم أحرار يفعلوا ما يريدون . وقد سألت ضابطاً دولياً رأيته يتطلع إلى السماء : كيف الحال ؟ فأجاب : لا شيء هناك . وإنما ننتظر سقوط الجليد !

وتركنى ومضى يضحك واحتفظ بالمعنى فى بطنه أو ربما كان كلاماً بلا معنى أو هى إجابة تقليدية أو أنه كلام دولى !

ودخلت أحد الكباريهات . . وقد امتلأ بالبوليس وعيونهم تتجه إلى من يدخل من المدنيين ولكنهم حريصون على أن يضيقوا اتصالهم بالناس

إلى الحد الأدنى . . وفى هذا المكان منذ سنتين ظهرت فتاة يونانية كانت جميلة الصوت والشكل . وكانت طيبة القلب . وبهذه الطيبة خربت بيت أعز أصدقائى . . إننى أستطيع أن أروى قصته هنا وأنا آمن . فهو غاضب منى ، وقد أقسم ألا يقرأ شيئاً مما أكتب وخسرت قارئاً مستنيراً صادق الإدراك والنقد . . كانت تربطه بهذه المطربة اليونانية واسمها « ميراندا » صلة الحب العنيف . وكان يسافر يوماً بعد يوم من القاهرة إلى بورسعيد ليجلس إليها حتى الصباح ويعود إلى مصر . . ولم أكن أعرف هذه العلاقة . .

وفى يوم تلقيت دعوة من زوجته لحضور عيد ميلادها . وذهبت ولم أفطن إلى أن مجيئى إلى بيت هذا الصديق كان مفاجأة كبرى له . وبعد وصولى بدقائق استدرجتنى الزوجة إلى البلكونة وفتحت مظروفاً كبيراً وسألتنى إن كنت أعرف واحدة من هؤلاء . . والمظروف ملىء بصور الفتيات . ولم أكن أعرف . . إلا « ميراندا » هذه ومددت يدى إليها . وسقطت الصور من يدى الزوجة . بل وسقطت الزوجة من حياة هذا الرجل وانفصلت عنه حتى هذا اليوم .

وكان الزوج قد أكد لها أنه لا يعرف صاحبة هذه الصورة ولا يدرى من الذى دسها فى جيبه ، وقاطع الزوج أصدقاءه القدماء وصديقاته القديمات . وهو اليوم متصوف لا يقرأ إلا القرآن وإلا الأحاديث النبوية . . ويعيش فى أرضه التى يملكها بعيداً عن كل إنسان وكل زوجة وكل ميراندا .

إن هذا الصديق كأنه مات . . يكفى أنه قرر ألا يكون له مستقبل . .
والإنسان الحى هو الذى له مستقبل، والميت هو الذى لا مستقبل له .

ونحن وبورسعيد أحياء . سيكون لنا شأن . وسنعيش وننهض لأن الحياة تستحق أن نعيشها وأن نمدها بنا وبالناس بعدنا . وما دام هناك بحر ستكون حياة . ليس هذا كل ما أحسسته فى بورسعيد وإنما هذه حفنة من تراب الأرض التى تلقت عنا الفزع والنار والدمار . وبقيت وستبقى وتعيش بنا وبعدنا . .

وبكى الطفل !

كأن فى داخلى طفلا صغيراً . . لم يكبر ولا يريد أن يكبر . إنه يمد يده إلى الناس لكى يعطوه بعض « البمبون » أو يقرصوه فى أذنه قائلين : شاطر . . وإلا لماذا أتحدث عن ذهابى لنادى التوفيقة وعن أننى ألعب التنس . . وأن المضرب الذى ألعب به من ماركة دنلوب وأن الكور أيضاً من هذه الماركة . ولماذا أستدرج أصدقائى لكى يتفرجوا على . مع أننى أكره أن يرقبنى أحد وأنا ألعب . وأنا أتساقط فى خشونة على الأرض . وأمامى ممرن خفيف رشيق الحركة . . على كل حال لست أنا الذى أفعل ذلك . وإنما هو الطفل المحروم المسكين الذى فى داخلى . . الذى لم يسمع كلمة حلوة طول طفولته وتلمذته . أيام كان ترتيبه الأول فى كل مراحل التعليم حتى الليسانس . . وأنا أرى ذلك وأسمع وأشفق عليه وأتحول إلى أم . وإذا بى أحمل الطفل على صدرى وأهدهده وأقول له : سد ياروحى سد . . بابا زمانه جاى . .

وكنت أسحب ألسنة أصدقائى ليقولوا لى : والله أنت تلعب جيداً . . كيف تفوقت هكذا . .

وأنا أعلم أن هذا غير صحيح وأصدق كلامهم . وأقول لنفسى : لم يعد الطفل فى الداخل لقد أصبح فى الخارج أيضاً . .

واشتريت كثيراً من الكتب عن أبطال التنس . وقرأت عن اللاعب

العالمى « هود» الذى لا ينام إلا إذا كانت الكرة والمضرب فى حضنه . . وقرأت عن لاعبة دنمركية كانت تحلم بأنها تلعب وهى نائمة فكانت تصحو من النوم وتذهب إلى صديقة لها وتلعبان معاً . . وقد تكرر منها ذلك حتى منعها البوليس من إقلاق راحة النائمين . .

وجمعت عدداً من المقالات عن الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين كانوا يحبون الرياضة ويفضلونها على القراءة والكتابة . . وقررت أن أؤلف كتاباً عن « أدب الملاعب » . . وليس مهماً أن يصدر لى أو لغيرى وإنما المهم أن يصدر والسلام .. واكتشفت أننى غير مقتنع بهذا اللعب وإضاعة الوقت فيه . وأن كل الكتب التى اشتريتها والمقالات التى جمعتها ليست إلا محاولة لتبرير موقف لا يقنعنى . . ومع ذلك لم أتوقف لا عن شراء الكتب ولا عن جمع المقالات ولا عن اللعب . .

إلى أن كان أمس . . .

ذهبت لأشهد مباريات فى كرة التنس ، إنه شىء غريب عن الذى أعرفه . . فلا اللاعبون يمسكون المضارب كما أفعل . ولا الكرة تتحرك معهم كما تتحرك معى . . إنها فى أيديهم طائرة خفيفة خاطفة . . وفى يدى كأنها طوب أو حجر . . وإنها ثقيلة . . وحركاتهم أرق وأكثر نعومة . . أما حركاتى فهى دبيب على الأرض كأننى أحاول رصفها من جديد أو أحاول مسح العلامات البيضاء منها .

ثم رأيت اثنين من اللاعبين . وعرفت فيما بعد أنهما من أشهر لاعبى مصر . وهذا واضح جداً . وعرفت الفرق الذى بينى وبينهما . .

فكل منهما يلعب وكأنه يطارد فراشة بيضاء .. فيرفع يده إلى أعلى .. إنه « يهوشها » فقط ولكنه لا يضربها . . لأنه يخاف أن تموت . . أو كأن الواحد منهما لا يضرب الكرة وإنما هي التي ترتمي على مضربه . .

أما أنا فأشبه عسكري البوليس والكرة تشبه البائع المتجول . . البائع « السريح » وأنا أضربه على قفاه وأقول : يا الله قدامي على القسم . .

وأحسست بشيء كثير جداً من اليأس والقرف . . وشعرت كأنني بائع متجول وأن يداً غليظة تهبط على قفاي وتقول : قدامي على البيت !

وقمت . . ولم أذهب إلى النادي بعد ذلك .

. . . وبكى الطفل !

إنه عقلى الصغير !

من الناحية الأخرى جاءتنى ابتسامة عابرة . . ولم أرد عليها . . فأنا لا أعرف إن كانت لى أو لغيرى ، ولم ألتفت ورائى ، لأرى من هو صاحبها . . . ووقعت الابتسامة على وجهى وكأنها حمامة بيضاء فوق مدخنة أحد المخابز . . وعادت الحمامة إلى حيث كانت من الجانب الآخر من « نادى الجزيرة » ولكنى نظرت إلى هذه الناحية .. وفى مرارة عشرين فنجاناً من البن ، وجفاف سهر الليالى الطويلة بلا نوم ، وقرف حبوب كثيرة أتعاطاها ضد السمنة ، حاولت أن أبتسم ولكن جاء ردى متأخراً . . .

وحاولت أن أدارى خجلى . . . أو برودى . . فرحت أتطلع فى الوجوه . . . وكانت عيناى تتعثر بين المقاعد والمناضد ... وتتسلل بين الناس ، وتتزحلق على الفساتين المشدودة بالصحة أو بالترزى ... وفى جانب من النادى أحسست فجأة أننى أقرأ فى كتاب قديم من القرن الثامن عشر ... فالوجه الذى أراه هناك ... معروف فى تاريخ الأدب الفرنسى ... من أيام الحب والجمال والفروسية ... وأنا أراهن أنها تنتظر فارسها الذى سيجىء ومعه سيفه . . . وتحته حصانه الأبيض ، ووراءه عائلته وقصوره .... وسيخطفها إلى مكان بعيد ... وفعلا جاء الفارس

بلا حصان أبيض ، فقد كان هو الحصان الأبيض ... إنه صحة بلا رقة ، وقوام بلا خيال .. ونهضت هي كعصفورة و وقفت على ذراعه ... وأطلقت حمامة بيضاء أخرى ناحيتي ... فأطلقت أنا سرباً من الحمام الأبيض ومعه بعض الصقور والنسور ، ووضعت في رجل كل حمامة رسالة صغيرة . . .

وأغلقت الكتاب الذى كنت أقلبه فى خيالى وأصبح كل شىء أمامى أبيض اللون ... كصفحات سقطت منها الصور ... أو ألواح زجاجية انعكست عليها الشمس ...

وكانت هذه الابتسامة فيما مضى تذيبنى ، تجعلنى أنزل من المقعد إلى الأرض وأركع وأشكر الله الذى وهبنا الشيء الجميل و وهبنا الإحساس به . . . فنحن لا نرى الله ، ولكن نرى ما صنعته يداه . . ونحن فى سعادتنا نقبل يديه . . .

وفى خيالى . . . ركعت وسجدت وشكرت الله . . فما تزال الابتسامة تهزنى . . وتنقلنى من عصر إلى عصر . . إن قلبى ما يزال صغيراً . .

وعندما رأيت السمراء تصافح رجلا يجلس ورائى . . وتجلس إليه وتعتب عليه أنه كان مشغولا عن ابتسامتها و إشارتها ، حزنت وحزنت وحزنت على أن عقلى ما يزال صغيراً !

بخلع الضرس !

ليس هذا الموضوع شخصياً . ولكنه موضوع عام . وأنا مضطر أن أذكر هنا بعض الأسماء . . فكل اسم كأنه قسم ، كأنه « حلفان » بالله العظيم أن ما أقوله صحيح !

أنا الآن فى عيادة الدكتور ع . . . المصباح المضىء يدخل فى أذنى وفى أنفى وفى حلقى . والدكتور يقول لى : كل شىء سليم .

وأحسست بكراهية للغة العربية وللمصابيح !

هذا شعورى . . .

وانتقلت إلى مستشفى الدكتور . . . أنزع ملابسى وأتمدد على منضدة طويلة وبجوارها مناضد صغيرة . . ويقف إلى يمينى الدكتور و . . . طبيب الأسنان . أمامه أجهزة وأدوات شكلها عجيب ومخيف . مسامير وإبر وأمشاط وكلبشات ملتوية كأنها خرجت من النار تواً . وأنا فى دهشة وأسأل نفسى والبنج الكامل الشامل يتمشى من ذراعى إلى كل جسمى : كل هذه الأدوات من أجل ثلاثة ضروس . . لا بد أنه سيخلع . .

ولم أكمل هذه العبارة لأننى لم أشعر بشىء بعد ذلك . .

وبعد دقائق لا أعرف كم عددها بدأت أفيق ، وهنا يبدأ الموضوع الذى أريد أن أتكلم فيه — بدأ الضباب الكثيف يتزحزح قليلا . المصباح

الذى فى السقف يشبه عيناً حمراء . . كل شيء حولى كأنه ماء أو أمواج وكأنى سمكه أتلوى . . أو كأننى فى قاع البحر . . لا أشعر برأسى إطلاقاً . ولا أعرف كيف أرى الأشياء ، ولا أدرى بأى شيء أراها وأرانى . . وأحس كأن النصف العلوى لرأسى فقط هو الحى ، أما النصف الآخر فلا وجود له . . . ميت . . . أو أن عنقى يبدأ من تحت عينى مباشرة وأن تياراً من الهواء يلتف حول عنقى . . .

أرجوك أن تنتظر بضعة سطور حتى أوضح لك ما أريد أن أقول : وبعد ساعتين ... أصف لك شعورى ... بدأت أشعر بفمى وبلسانى وأسنانى ... وأشعر برأسى كله . ولو كنت رساماً وأمسكت قلماً وحاولت أن أصور نفسى ... لكانت الصورة هكذا : بقعة سوداء على هيئة نمس بطيخ . هذا النمس هو رأسى . وسوداء لأننى لا أرى رأسى ، ولا أحد يرى رأسه وبعد ذلك أرسم أنابيب ملتهبة فيها ماء يغلى... هذا بالضبط شعورى ... ثم هنا شيء يلتف حول حلقى لا أعرف كيف شكله ، لا أراه ولكن أحسه ... أنا أعلم أنها عروق تنبض .. ولكن أحس بها كأنها الأفاعى التى تهرب من النار فى حلقى . . ولو رأيت هذه الصور ورأيت الناس يسخرون منها ، فسأسخر أنا منهم . فقد كان هذا شعورى بالضبط . مواسير مياه أو مواسير هواء ساخن ينفذ من رأسى إلى حلقى ومسامير ملتهبة تدقها شواكيش لا أراها . .

وهذه اللوحات غريبة لأننا تعودنا على اللوحات التى يرسمها الإنسان وهو فى كامل وعيه ، التى لا يرسمها وهو دائخ أو سكران أو يحلم أو وهو

ما يزال نعسان . . . أو هو يعانى آ لاماً حقيقية ... وشيء آخر وهو أننا تعودنا أن نرسم « رجلا » يبكى وأن نرسم « رجلا » يخلع أسنانه . . . أو « امرأة » مغمى عليها ... ولكننا لم نتعود أن نرسم «البكاء» نفسه ... أن نرسم «الألم» ... أن نرسم «الإغماء» ... هذه هي الصعوبة... فاللوحة التى أرسمها لنفسى وأنا أتألم ، ليست هى وجهى ولا ملامحى ولكنها شعورى ... شعورى بالألم والعذاب والصداع واحتباس الدمع فى عينى . وخجلى من الطبيب والممرضات وحرصى على أن أخفى كل متاعبى عن أمى ... فأنا أرسم المعنى ، ولا أرسم الشخص ...

ولهذا كانت لوحات الفنانين السرياليين غير مفهومة أو مستحيلة الفهم ... لأنها لوحات ترسم المعانى المجردة من اللحم والدم المجردة من الأشخاص . . .

ولكننى أستطيع أن أقول إننى فهمت بعض هذه اللوحات ولكن بعد إيه ؟ . بعد خلع الضرس . . بل الثلاثة ضروس !

. . عارف أنا مين ؟

. . . سيدة وزوجها وأولادها . أمامهم منضدة عليها أكواب فقط تحت المنضدة سلة لها كرش كأنها قنبلة ... كلما اقترب منها الأطفال، ضربتهم الأم وغمز لها الأب قائلا : وبعدين ؟ السيدة فيها شبه كبير من مارى منيب ، المكان ليس مسرح الريحانى . إنه جزيرة الشاى . الوقت هو ساعة الأذان . الأسود تزأر . البط والإوز يدور حولنا كأفكار حائرة فى رأس لم يتخذ قراراً . كل شىء هادئ . وأخيراً ارتفع صوت اتجهت إليه العيون والآذان .. .

السيدة : أنت مش عارف أنا مين ؟

الجرسون : مين يعنى إيه ؟ وأنا مالى .... إيه اللى مش عارف أنا مين ... لا ما اعرفش انت مين يا ست هانم ...

الهانم : اسكت أحسن لك . انت مش عارف أنا مين ...

الجرسون : لا يهمنى أبداً ... الأصول لازم تمشى يا ست هانم ... ممنوع ... الأكل هنا ممنوع ... إذا أردت أن تأكلى فأنا خدامك ولكن أى أكل من البيت ممنوع ...

الهانم : اسكت أحسن أقوم أكسر دماغك !

الجرسون : عيب... أنا قلت ممنوع يعنى ممنوع .

أنا (بينى وبين نفسى) : انت مين يعنى إيه ... طبعاً كلنا نعرف

أنت مين! الشوال الذى تلبسينه من تفصيل منجد بلدى ... بشرة حضرتك تحتاج إلى مبيض للنحاس ... الأساور التى فى يديك خردة عليها صدأ أفكارك . وأنت لو كنت شيئاً له قيمة ، لجلست فى مكان آخر ... فى هيلتون مثلا . أو كان فى استطاعتك أن تبنى قصراً وتجعلى فى القصر بحيرة وفيها جزيرة وفى هذه الجزيرة يقف عشرون جرسوناً من خريجى الجامعة .. وفى استطاعتك أن تصبى على رءوسهم الشمع وأن توقدى هذا الشمع لكى يضىء الطريق للذباب لكى يدخل عيون أبنائك ! طبعاً أنا أعرفك ... أنت فشارة ... أنت تافهة ... مين يعنى إيه ؟ من هو زوجك ؟ الأصول يعنى الأصول !

وخشيت أن تسمع هذه السيدة أفكارى فوضعت يدى على فمى . . وتنحنحت كأنى أبلع كلامى !

الجرسون : من فضلك ممنوع . وإلا .

الهانم : وإلا إيه يا روحى ... بتهددنى . بتهددنى بإيه ... امش من هنا ... انت فاكر أن أولادى عاشوا على الأرصفة ... أولادى عاشوا على الغالى ... شوف نفسك أنت ؟ (وتنظر إليه من فوق لتحت) .

الجرسون : على الغالى على الرخيص ... ممنوع ... الآن لا أحد يعيش على الأرصفة ... ثم إنى رجل محترم ... إننى أعمل فى هذه الخدمة من ٣٠ عاماً ولم أسمع شيئاً كهذا ...

الهانم : مش كل الطير يتاكل لحمه .

الجرسون : مالى أنا ومال الطير اللى يتاكل لحمه واللى ما يتكلش ...

هذا ممنوع يا هانم . . .

أنا (بيني وبين نفسي مع الأسف): أتمنى أن أكون فى ملابس هذا الجرسون لألقنه كيف يرد على هذه السيدة الباردة ... وكيف يتمسك بالأصول ... كيف يطردها بقوتنا – نحن الزبائن ... نحن الأغلبية الساحقة التى جاءت تلتقط هواء بكراً لم تتنفسه حمير وقرود وأسود هذه الحديقة ... وكيف يلقى بها فى البحيرة ... لقد حدث منذ أيام فى أحد مطاعم روما ... لقد كانت هناك سيدة سكرانة جداً ... فتعاون الجرسونات وألقوا بها فى الماء ... وهذه السيدة سكرانة بالغرور ... بالنفخة الكاذبة ... والله لقد كان الرجل هيلتون على حق عندما اختار جرسوناته من أحسن طبقات مجتمعنا ... فلا يستطيع زبون أن يقول لجرسون : أنت مش عارف أنا مين ؟ لأن الزبون يعلم من هو هذا الجرسون .

(... المنظر الآن تغير ... السيدة تجلس وزوجها وأولادها فى هدوء ... كأنها على المسرح وكأنه لا يوجد جمهور يتفرج عليها فى هدوء ... أما الجرسون فهو كالممثل الذى أخطأ طريقه إلى الكواليس فمشى من فوق خشبة المسرح ، واختفى فى كسوف ... انفتحت السـ ظهرت شظايا القنبلة ... إنها سندوتشات ضخمة ... وبعد لحظة ظهـ الجرسون ومعه دورق ماء ... ووقفت لكى أراه وهو ينزل فوق رأ السيدة ولكن مع الأسف وجدته قد استقر أمامها ... ولم أستطع البـ لحظة وقابلنى الجرسون وأنا أنصرف ...)

الجرسون : الله ! على فين ؟

أنا : هنا رائحة زفارة

الجرسون : الرائحة موجودة كل يوم . .

أنا : أيوه صحيح . . ولكنها زادت النهاردة .. وعاوز أشوف الحمار اللى الصحف كتبت عليه إنه ولد أخيراً . . . ثم إنك لا تعرف أنا مين ؟

الجرسون : نعم ؟ !

أنا : أنا اللى احترمتك لمدة دقيقة ورأيتك بطلا لأنك تمسكت بالأصول . . . أما الآن . . . فروح شوف الهانم ابنها بيعيط . . . يمكن عاوزاك تشيله شوية ! . مفيش فايدة !

الجرسون : نعم ؟

أنا : هذه هى أحسن كلمة . . . قلها . . قلها . . طول عمرك !

الجرسون : نعم ! !

أنا : أنت مش عارف أنت مين !.

صراع .. وصداع

منذ أيام أحسست أن رأسي كالبيضة فى داخلها كتكوت يريد أن يرى النور.. إنه ينقرها من الداخل ... منقاره قوي... ولكن جدار البيضة قوي . . . أقوى من منقاره . . . ويبدو أن هذا الكتكوت يريد أن يخرج قبل الأوان ... وككل عملية ولادة تصاحبها دموع . لا دموع المولود ولكن دموع البيضة وصراخها ...

وهذا الكتوت من المؤمنين بالحكمة التى تقول : من سار على الدرب وصل والذى يدمن الدق على الأبواب لابد أن تنفتح له .. فهو يدق رأسي فى مكان واحد...

لم أفهم سبب هذا الصداع الشديد . رحت أقلب فى الكتب .. فكتاب يقول لى إن سبب الصداع الشديد هو : العين أو المعدة أو الكلى أو الكبد أو الجيوب الأنفية . . .

وكتاب يقول : إن الصداع له أسباب نفسية مثل الانفعالات الشديدة كالخوف والقلق .

وكتاب ثالث يقول : إن الصداع النصفى وراثى . . . وإن المصاب بهذا الصداع يجب أن يفتش بين أبائه وأجداده عن أصل هذا الصداع .. وهذا الصداع النصفى لا يصيب الإنسان بعد الستين أبداً .

ولكن إذا أصابه قبل الستين فماذا يعمل ؟

الكتب كلها التزمت الصمت . . كأنني طائرة معلقة فى الهواء بدأت تستغيث بأقرب المطارات منها . . ولكن مطاراً واحداً لا يرد .

وقلبت فى كتاب آخر وأنا أبتسم لصفحاته التي امتلأت بعبارات تقول : الصداع توأم الذكاء الشديد (هه !) وعبارة أخرى تقول لك : الصداع هو الثمن الذى دفعه أصحاب الطموح (يعنى !)

وقرأت أن أعراض الصداع النصفى . أى الذى يصيب نصف الرأس تظهر بأن يسبقها أولا إنذار ، فأنت ترى بريقاً فى العين ... أقصد شرراً ينطلق منها أمامك . . . هذا الشرر هو بشير بأن الصداع فى الطريق . . هذه الشرارات تشبه تماماً النقط الضوئية التى تظهر على شاشة التليفزيون . . واحدة واحدة وبسرعة هائلة ليبدأ البرنامج .

وبعد الشرارات التى تنطلق من أو أمام عينيك . . يبدأ صفير . . وهذا الصفير يدل على حيويتك ونشاطك . . تماماً كالصفير الذى ينطلق من إناء يغلى . . لكى تسارع برفع الغطاء عن الإناء أو إبعاده عن النار . والمصيبة أن الذى يحاول رفع الغطاء . غطاء رأسى لست أنا ولكنه شىء فى داخل الرأس . . .

وهذا الصداع النصفى يدل على أن هناك اختلالا فى توازن الجسم . . القلويات أعلى من الحمضيات أو العكس . . وهذا الصداع يشبه « الطقطقة » التى تسمعها وأنت تمشى على أرض خشبية . . أو يشبه صوت الألواح الخشبية فى زورق يتأرجح يميناً وشمالا . . والزورق يحاول

أن يحتفظ بتوازنه . . وجسمك هو الآخر يحاول أن يتوازن . . والصداع هو صدى التوازن !

وقرأت فى كتاب « الوصفات البلدية » للدكتور جارفيز أن العلاج الوحيد للصداع هو أن تضع الخل فى الماء وتشربه .. وبعض البدائيين كانوا يشمون بخار الماء والخل .

ولكن العلاج الناجح للصداع هو ملعقة من عسل النحل . . مرة أو مرتين فى أى وقت . . فالعسل هو وحده الذى يهدئ الأعصاب ؛ فالجسم يمتصه بسرعة وينقله إلى الدم فى نصف ساعة . .

وجربت العسل . . وقد أفادنى العسل فعلا . . ولكن المشكلة الآن أن الصداع الذى تجمع فى جانب من رأسى قد تفرق على أسنانى . . فى كل صف منها صداع . . وقد اصطفت أسنانى صفين . . كأنها أعضاء مجلس إدارة حول مائدة مستطيلة . . وكل واحد منها يطلب الكلمة . . كلها فى وقت واحد . . وعندما لا تعطى له الكلمة يدق المائدة بيديه ! !

وحاولت إرهاق السادة أعضاء مجلس إدارة مخى وحياتى كلها بأن أصرخ وأنفخ وأوزع عليهم أقراص الأسبيرين والفيجانين وطوفان المياه.. فتتعالى الصرخات . .

ملحوظة : أحسن علاج فى هذه الحالة هو أن تخلع أسنانك كلها. فمعظم سكان أمريكا لهم طقم أسنان . . والسبب هو سوء الهضم . . هضم الأكل وهضم الكلام . . كالمنشور أعلاه !

إنها محطة واحدة !

أحب السكن بجوار السكك الحديدية . . . حيث النار والبخار والصفير والزعيق . . والوقوف على الرصيف فى انتظار شىء ما . . والخوف أن يفوتنى شىء ما . . وشعورى الدائم بأنى على سفر . بأنى مسافر . . بأنى أتحفز وأترقب وأتهيأ .

وكل البلاد التى سافرت إليها كنت أسكن فيها بالقرب من محطة وكنت أتمنى لو أننى قمت من نومى فوجدت أن الفندق الذى أنزل فيه قد سحبه أحد القطارات وانطلق به إلى نهاية العالم . . وبلا توقف . .

واكتشفت أخيراً أننى أسكن بالقرب من أغرب محطة فى الدنيا . . إنها ليست محطة سكك حديدية . . بل إنها محطة ولكن بلا سكك . . إنها ميناء ولكن بلا سفن ولا ماء . . إنها محطة فقط للسفر بين الأرض والسماء . . وكل إنسان مسافر بين الأرض والسماء . . وكل مسافر ينتقل من هذه المحطة إلى مكان بعيد . والرحلة كلها محطة واحدة . . وكل إنسان له قطار خاص به . . والمسافر يودعه أهله وأصحابه بعد سفره بساعات وأحياناً بأيام . .

والغريب فى أمر هذه المحطة أن القطارات ليس لها صفير ، وإنما الذى يصفر ويصفق ويضرب الأجراس هم الواقفون على الأرصفة . . كل

ذلك بعد أن يكون القطار أو الباخرة أو الصاروخ قد انطلق . .

فبيتنا يقع على رأس شارع صغير . وهذا الشارع تنتهى إليه مجموعة من الحوارى الضيقة التى تتسع لأى صوان يجتمع فيه الناس ليترحموا على أحد الموتى . . ولذلك فأقارب الموتى يجتمعون كل يوم بالقرب من بيتنا حيث نقطة الانطلاق إلى العالم الآخر . . حيث توجد المحطة التى يسافر منها الناس بلا رجعة فى قطارات خاصة جداً . . قطارات شخصية لا يراها أحد . . وعلى رصيف هذه المحطة يبكون ويصرخون .

وآخر المسافرين هو عم إسماعيل . . .

وليس عم إسماعيل شخصية هامة . ولا حتى هو شخصية ، إنما رجل سقط بعد الثمانين على الأرض . . ولم يكن سقوطه خبراً هاماً . فقد كان يعيش على الرصيف ، وتدحرج من الرصيف إلى الشارع . . لقد كان سقوطه هيناً . بل إنه عاش ساقطاً ومات ساقطاً . . بل إن الإنسانية كلها ساقطة من السماء إلى الأرض . . وكان عم إسماعيل يتربع على عرش من الأحجار يتصرف فى مملكة الترمس والفول . . وكان يبيعها أحد عشر شهراً فى كل سنة . . أما الشهر الثانى عشر فقد كان يقضيه عم إسماعيل فى إيقاظ الصائمين . . لقد كان يقوم بدور المسحراتى .

وأمس جاء دور عم إسماعيل لينام ويصوم إلى الأبد . . أما نحن فكان علينا أن نصحو من الثالثة صباحاً ونستقبل مالانهاية له من أمواج الصويت واللطيم . . وياسبعى وياجملى . . وياللى ربتنا على العز . . وعلى الغالى . . وياللى ما كانش حد يشوفلك ولا يسمعلك — أى أنه

رجل مستور .. رجل فى حاله .. من كوم الحجارة إلى عربة الترمس ..

وقد تعودت هذه الأصوات كل يوم . . وتعودت شيئاً آخر . .
فنى الطريق إلى « دار أخبار اليوم » يوجد مستشفى الولادة .. ولا يمضى يوم دون أن تمشى جنازة . . دون أن أجد عدداً من النساء فى ملابس سوداء كالغربان . . والصويت واللطيم ويا أختى . . يا ست البنات يا غالية . . ويا ست العيلة . .

والطريق إلى مكتبى كالطريق إلى الجنة : محفوف بالمكاره . مع فارق واحد أن الطريق إلى الجنة فى اتجاه واحد والطريق إلى مكتبى فى اتجاهين . . ذهاب وإياب . . وأن مكتبى نار فعلا . . الغرفة ضيقة خانقة .. إذا أقفلت النافذة تحولت غرفتى إلى حمام تركى .. الأفكار فى رأسى هى البخار وعقلى هو التركى . .

وإذا فتحت النافذة تزاحمت الأصوات على أذنى .. ولا تزال الأصوات تملأ أذنى حتى تسدها ومن ذلك طرقات الحديد للحديد . . وأنا أشعر بالصداع الدائم .. لأن الأصوات أصبحت ملموسة .. أصبحت شواكيش تطير من الورش إلى النافذة وتدق رأسى وتعود إلى مكانها . . إنها شواكيش موجهة . . شواكيش بعيدة المدى . . شواكيش عابرة للنوافذ . .

وعلماء التجارة والصناعة يعزوننى قائلين : إن هذه الأصوات الصارخة هى موسيقى النجاح والانتعاش الاقتصادى . . إنها أوركسترا التطور . . إننى يجب أن أكون سعيداً بهذه الضوضاء . . فهى قلوب من حديد تنبض !

وأتمنى أن أكون سعيداً لولا أن هذه الضوضاء تحطم رأسى . . تحاول أن تضغط رأسى فى عنقى وعنقى فى أحشائى ، وأحشائى فى مقعدى . . إنها تحاول أن تدفننى حياً . . إنها موسيقى جنائزية . . إنها تحاول أن تجعل من مكتبى محطة لإطلاق روحى إلى عالم آخر لكى ألحق عم إسماعيل الذى كان آخر المسافرين أمس . .

وسنستريح الليلة من صرخات التوديع لعم إسماعيل . .

وغداً أو بعد غد تستأنف المحطة نشاطها .. وربنا كريم .. ربنا قادر على أن يجعل انطلاق هؤلاء المسافرين نهاراً . ظهراً بدلا من أن يستقلوا مع الفجر « قطار الصحافة » إلى العالم الآخر !

عروس من حديقة الأسماك

كانت أول حفلة زفاف شاهدتها فى حياتى . لم أعرف ما هى التقاليد التى تتبع فى مثل هذه الحالات . لم يكن لدى متسع من الوقت لكى أسأل العارفين ببواطن الأمور . . كان الوقت ضيقاً جداً . . تلقيت مكالمة تليفونية فى الصباح . وكان الزفاف فى نفس اليوم والمكالمة هكذا : ألا تعرفنى ؟ وكان جوابى : لا مين ؟ وسؤال آخر : هل تذكر أيام حديقة الأسماك بالزمالك ؟ وكان جوابى : أذكر .

ولكنها أيام مضت منذ أكثر من عشر سنوات وكنت أنا وآخرون من تلامذة الجامعة نلعب الكرة ونقرأ ونتناقش وننام تحت الأشجار طول النهار .

وجاء السؤال : هل تعرف الخادمة ذات الفستان الأسود . . ألا تذكر تلك المربية التى تتكلم الفرنسية ؟

ولم أكن فى حاجة بعد ذلك إلى أن تذكرنى أكثر من هذا . لقد كانت أعجوبة فى ذلك الوقت . وكنا نلتف حولها ولا نكف عن الدهشة أبداً . كأننا لا نصدق ما نرى أو ما نسمع . . إنها فتاة مصرية هربت من أقاصى الصعيد . . من إسنا . . من قنا . لا أذكر على التحديد . وقد حصلت على البكالوريا الفرنسية . وأحبت شاباً فى بلدها . وسمع أبوها بالقصة . وسألها إن كان هذا صحيحاً فأنكرت . ولكن الحزن بدا على وجه

أبيها . وانحنت رأسه وترك لها البيت يوماً كاملا . . ولم يكن صعباً عليها أن تستنتج أنه ذهب ليتفق مع بعض أقاربه على قتلها أو إلقائها فى النيل . فهربت إلى القاهرة . وفى القاهرة اشتغلت مربية . . تتردد بالأطفال على حديقة الأسماك . وتخفى فى ملابسها ووراء ظهرها عدداً من الرجال لا أزال أذكر أسماءهم : تولستوى وفيكتور هيجو وبلزاك وموليير وشكسبير . . وبين الحين والحين تحدثنا عن قصة (البؤساء) وعن قصة (الحرب والسلام) ونحن نتطلع إليها وكأنها سقطت من المريخ . . وكنا نقول : خادمة تتكلم الفرنسية وتقرأ هذه الكتب التى لا نعرفها . . أما غريبة . . غريبة !

وأصبحت ماتيلدة — وهذا هو اسمها — ضرورية بالنسبة لعشرين طالباً جامعياً هم الآن مهندسون وأطباء ومدرسون وثلاثة منهم صحفيون .

وذهبت إلى بيتها فى الزمالك . . إنها هذه المرة فى إبيتها وليست بيت أسيادها . وستكون لأولادها مربية وستلعب مع الأطفال فى حديقة الأسماك . ولا غرابة فى ، هذا ولن يكون للمربية معجبون إلا إذا كانت هى الأخرى هاربة من أب صعيدى . . ورأيت الأب الصعيدى عند ماتيلدة . إنه صامت جامد . على وجهه علامات عرضية وطولية . . إنه مصنوع من نفس طينة البلاليص والقلل . إنه ما يزال ساخطاً . . وفى بيتها رأيت أناساً كثيرين . ورأيت زملاء حديقة الأسماك قد جاءوا بزوجاتهم وأولادهم . ورأيت ماتيلدة .

إنها لم تتغير . ولكن أضيفت لها بعض الصفات : وجهها مشرق

ممتلئة هادئة الطبع . . وتتكلم العربية هذه المرة . ورأيتها وهي تدفع أمامها منضدة الطعام .. منضدة صغيرة لها عجلات . . وتذكرني يوم اشترينا معاً بعض الكتب من الجيش الإنجليزى . ولم نجد وسيلة لنقلها إلى بيتى سوى عربة كارو صغيرة . . ووضعنا الكتب . ودفعت العربة أمامى .. واخترقنا بها كل شوارع الزمالك . . وإلى جوارى سارت ماتيلدة مع أسيادها من الأطفال الصغار . .

أما زوجها فهو السيد الذى كانت تعمل فى بيته . . لقد ماتت زوجته وأحب ماتيلدة . . وكان هذا هو حبه الأول أو حبه الأكبر كما يقول الفرنسيون . . ويظهر أن الحب فى الكبر كالنقش على الحجر . والحب فى الصغر كالنقش على الماء . . ورأيت الحب منقوشاً على وجه الزوج بالثلث !

وأدهشنى أن أرى سكيناً كبيراً معلقاً على الحائط . . وقلت ربما هذه بعض تقاليد الصعيد . . أو سكينة أثرية . . أو سكينة لها ذكريات . وفهمت منها أنها لم تر أباها إلا منذ يومين . فقد أرسلت إليه تدعوه لرؤية ابنته ليقتلها بعد أن فضحته وجعلته يلبس السواد عليها . . ولما حضر إلى مصر فوجئ بابنته ومعها كثيرون . ولم يتمكن من قتلها وإنما ظل يبكى وألقى بهذا السكين على الأرض وارتفع السكين من الأرض إلى الحائط كما ارتفع هو أيضاً من حيوان إلى إنسان . يسكن الزمالك ويشهد الزفاف ويحلم بأن يكون له حفيد يحمل اسمه الكريم : أبو جريس !

أكلوا مراتى !

لو عرفت أن شاباً مثقفاً جداً غنياً جداً رافق زوجته فى سيارة وصعد بها إلى شقة جماعة من الرجال لا يعرفهم . . وحياهم بكل أدب . ثم بعث لهم بقفص من الدجاج وصفيحة من السمن وخروف وظل واقفاً بسيارته عند باب البيت يسمع زوجته وهى تصرخ وهى تضحك وهى ترقص وتنتقل من ذراعى رجل إلى رجل آخر . . وتقع على الأرض . . وتمزق ملابسها . وتنام عارية والعرق والدماء تنزف منها . . ماذا تسمى هذا الرجل ؟

إنه شاب شريف يحب زوجته المثقفة التى تؤمن « بالزار » وحفلات الزار وأطباء الزار ! . .

لقيته مصادفة جالساً فى سيارة أنيقة فى حارة لا تتسع إلا لسيارته . . ولم يحتج إلى وقت طويل يشرح لى سر تعاسته وظهور الشعرات البيضاء فى رأسه . واصفرار أصابعه من التدخين . ونقص وزنه وإصابته بمرض السكر فى هذه السن الصغيرة . . إنه لم يتجاوز الأربعين من عمره .

لم تطاوعه نفسه أن يبقى حيث هو . . ترك سيارته وصعد الدرج ووقفنا معاً أمام باب الشقة التى وضعت لها ستائر حمراء ومصابيح حمراء . . وكانت الوجوه مصبوغة بلون الدم . . أو بالدم . . إنها جهنم . . وهؤلاء الرجال والنساء ليسوا إلا ألسنة النار تروح وتجىء وتتلوى وتصرخ .. كل

شىء نار ودم .

وفى هذا الجحيم تتحرك نساء محروقة اللون وقد وضعن البخور على أطباق كبيرة كأنهن « سالومى » تحمل رأس يوحنا المعمدان . . أو كأنهن عشرات من ريا وأختها سكينة . . وقد تساقطت لحوم الرجال على لحوم النساء . . وتمزقت الفساتين وما تحت الفساتين . . وأخذت الطبول العاوية تصم آذان الشياطين . . وتتساقط الشياطين الواحد وراء الآخر . . وتتحول الشياطين إلى بشر . . لها أظافر وأنياب ولها زئير ويتحول البشر إلى حيوانات تحبو على أربع ليركبها الشياطين من جديد . . وتسير فوق الدجاج والخراف المذبوحة . . إن الشياطين ملوك أما نحن البشر فعبيد لهؤلاء الشياطين .. هكذا تقول كل أغانى الزار . . وليس لنا معهم إلا شىء . واحد هو الطاعة التامة . . وإلا بقيت أمراضنا وعذابنا كما هو .

ونظرت إلى صديقى فوجدته قد أسند رأسه للباب وراح فى غيبوبة تامة . . وهززته فسألنى عن حال زوجته فقلت له : إننى لا أعرفها .. فدهش كيف أننى لم أره معها أكثر من مرة . . فراح يصفها لى . . ولكننى عند ما نظرت من النافذة لم أر عيوناً خضراء .. ولم أر قواماً فارعاً .. ولم أر امرأة واحدة شقراء . . فالألوان حمراء ، وكل العيون حمراء ، فسحب نفسه بقوة هائلة .. وجعل يفحص النساء أمامه واحدة واحدة وصرخ قائلا : إنها ليست هنا . . نحن فى منتصف الليل . . وهى ليست هنا لابد أنها نزلت . . لابد أنها ملقاة فى الطريق .. أين هى . . ياناس زوجتى الرحمة ياناس . أكلوها . أكلوا مراتى .

وبرزت سيدة سوداء فى يدها طبلة كبيرة . . وقالت بهدوء تام :
حضرته زكى أفندى ؟

فأجبت : إنه هو . .

قالت : وحياتك قل له إن الهانم معزومة بعد كده عند الست أم صبرى فى حارة زناتى . . . فى السيدة زينب .

وأقفلت الباب وعادت إلى النار تحرق فيها النساء والرجال . . وتشوى فيها الخراف والدجاج .

وسيبقى زكى أفندى يبحث عن زوجته فى حارة زناتى .

إنه مسكين . . ولكنه ليس الوحيد فى هذا البلد ! . .

أحياناً . . أحياناً

أحياناً أشعر كأنى أحمل فوق رأسى « حلبة مصارعة » وأن هناك اثنين من المصارعين فى حالة عراك . . ضرب . . فوق الحزام وتحت الحزام . . وحالة إغماء . . وصفير وتصفيق . . وأن هناك عدداً من الحكام يصرخون : واحد اثنين . . مائة . . ألف . . ومع ذلك لا يزال أحد المصارعين ممدداً على الأرض وينفخ .

وأحياناً أشعر كأن رأسى عبارة عن خلية نحل . . زحام وضوضاء . . وكلها تلسع وتوجع . . وأشعر كثيراً أن النحل الذى يسكن رأسى من نوع غريب . . من نوع عاق كريه . . وأن هذا النحل يجمع رحيق الزهور ثم يحولها إلى عسل ، ويضع العسل فى مكان آخر . . ثم يأوى إلى رأسى لينام . . كأن رأسى بنسيون أو كأنه أحد بيوت الطلبة . . هيصة وضوضاء . . وحنفيات مفتوحة وأبواب تتكسر . .

وأحياناً أشعر أن رأسى تشبه مصنع تفريخ الكتاكيت . . وعملية التفريخ لا تتم فيه بالطرق الحديثة . . بطرق الزرا ير . وإنما بالطرق البلدية جداً . . فهناك عدد من الدجاج ينام على البيض . . والبيض ترتفع درجة حرارته وبعد أيام تخرج الكتاكيت . ولذلك يجب أن يبقى الدجاج على البيض وأن ألزم الهدوء . . وفعلا ألزم الهدوء وأنام وأنا جالس حتى

لا ينكسر البيض في رأسي .. وأفاجأ بأن في رأسي معركة . واكتشف بعد ذلك أن الذي ينام على البيض ليس دجاجاً وإنما هو عدد من الديوك والديوك لا صبر لها على الرقاد . فالنوم على البيض كالحمل والولادة والرضاعة من أعمال الإناث . ولا تكاد الديوك ترى صورة امرأة جميلة أو أغنية مثيرة حتى تهرب وتضرب رأسي . . تريد أن تحطم الأقفاص . . تريد أن تهرب . . وأسمع الصداع وهو « يكاكي » في رأسي . . وتدور معركة الديوك في رأسي .. وتنخفض درجة حرارة البيض ويفسد .. وتجيء أفكاري ممششة !

وأحياناً أحس أن رأسي يشبه أسطح البيوت المجاورة لبيتنا . . خالية فارغة . . ليس فيها إلا بقايا كل شيء . . صناديق فارغة وبلاليص وأشولة .. وبعض الحياة .. حشرات تهرب من القطط ، وقطط من الكلاب ، وكلاب تهرب من « السماوى » والسماوى يكشر في وجوه الناس وهي تلعنه ..

وأتمنى أن يجيء اليوم الذي أبني فيه بيتاً له أساس متين . . أساس عميق أبني عليه صرحاً عقلياً من عشرات الأدوار . . وأصحو وأنام على هذا الأمل . . ولكن في كل مرة أهرش في رأسي لا ينزل إلا التراب وإلا العلب الصفيح . .

وأحياناً أشعر أنني أحمل فوق كتفي صندوقاً من الرمل . . جافاً مفككاً . . إنه قطعة من الصحراء . وأنتظر المطر . وأفعل كما يفعل البدو في الصحراء . . أنتظر وأنتظر . . وأصلي صلاة المطر . . وأرفع يدي . . ثم أمدهما أمامي ، وكأن كل كف طبق ينتظر الحسنة من السماء . . وقد

تسقط من السماء قطرات يبتلعها الرمل العطشان .. وأحياناً تنزل السيول .. ويبتلعها الرمل .. وعلى القليل من الماء ينبت الشعير والقمح .. ولا تمضى سوى شهور ويعود الجفاف ويلتهب الرمل .. ويحرقنى من جديد .. وأكرر صلاتى . وندائى ، ولكن لا حياة لمن تنادى !

قوم يا شيخ !

الناس معادن : ذهب وفضة ونحاس . معادن حقيقية ومعادن زائفة . ولا بد من غسلها من حين لآخر . بالنار بالدموع بالتراب ، حتى لا تصدأ ، فتصبح حياتنا سخيفة بليدة . .

آه لو كان يمكن « قلب » هذا الكائن الإنسان تماماً كالجوارب والبنطلونات . . ليكون الجسم فى الداخل ، والنفس فى الخارج . . آه لو كان يمكن غسل النفس كما نغسل المعدة والأذن والعين . .

ذهبت أمس إلى أحد الملاهى الليلية وفى نيتى أن يتحول هذا الملهى إلى حمام تركى سباحة فيه روحى . بل فى نيتى أن أجعل روحى تغرق وحتى لو استغاثت فلن ألقى لها بطوق النجاة ولا حتى بقشة صغيرة . .

واخترت إحدى المناضد .

وتلفت ورائى . لا أعرف أحداً . وتطلعت أمامى لا أعرف أحداً . . الأضواء تخفت . . المصابيح كأنها ثمار عصرتها يد فى الظلام فلم تترك فيها إلا البذور والقشور .

وانسابت النغمات والكلمات الإيطالية الدافئة الهامسة . . كل كلمة كأنها أصبع ناعمة تداعب الأذن . كل أغنية كأنها منديل حرير . . أو عشرات من أوراق الورد تتناثر علينا . . طلبت من المطربة

أغنية فضحكت . . وأغنية أخرى فازداد ضحكها وقالت : إن والدى يحب نفس الأغانى !

يعنى قصدها أن الأغنيات التى طلبتها قديمة . يعنى كأننى طلبت أغنيات لسلامة حجازى وكامل الخلعى ، ولم أطلب أغنية لعبد الحليم حافظ . .

وفجأة أحسست أن هذا الملهى أو هذا الحمام الذى جئت أستحم فيه ليس مريحاً كأن الموسيقى والأغانى والناس ماء راكد استحم فيه كثيرون . إن الماء ليس صافياً . . لماذا ؟ فقد وجدت الأغانى التى ترددها المطربة لها نظير عندنا . . بل إنها نفس الأغانى . . فهناك أغنية تقول : « زى زمان وأكثر . . حبيتك وحاحبك على طول . . » وهى خليط من أغنية لأم كلثوم وأخرى لعبد المطلب.

وأغنية أخرى تقول : « حكايتى دى كانت حكاية . . حكاية حب من البداية للنهاية » كأنها أغنية شادية . .

وأغنية ثالثة تقول : « بيتو . . يا واد يابيتو . . حبيتك . . قومى افتحى له الباب . . قومى ! » وهى أغنية نصفها لفايدة كامل ونصفها لفايزة أحمد .

وأغنية رابعة تقول : « أنا زى ما أنا . . وأنت زى ما أنت . . لا أنا باتغير ولا أنت بتتغير » وهى عكس أغنية ليلى مراد . .

وأمسكت ورقة وكتبت عليها ، وبعثت بها للمطربة . قرأت الورقة وضحكت . وانتظرت أنا أغنية وأغنية ورقصة واستراحة . ولم يحدث شىء.

فكتبت ورقه أخرى . رأتها المطربة وضحكت . وهزت رأسها . وانتظرت . وأمسكت ورقة وكتبت مرة ثالثة . . ورأيت الدهشة فى عينى المطربة كأنها تسلمت ورقة الطلاق . وأخيراً جاءت تقول لى : أنا مش قلت لك موافقة؟

— طيب فين بقى !

— بكرة . . .

— ودلوقت إيه المانع مش مستعدة والا إيه ؟

— أمال بتقولى إنك موافقة على إيه ؟

— موافقة إنك تكلمنى بالتليفون . .

— لا ! لا ! . . اللى أنا كتبته فى الورقة . . دا اسم أغنية . . الأغنية بتقول : أقدر أكلمك فى التيلفون . .

وضحكنا . . ولكنها حرمتنى من أحسن أغنية سمعتها منذ سنوات فى روما . . فالأغنية تقول : « أقدر أكلمك فى التليفون . أملى مثايا . أقول لك أى كلام . بس أكلمك . طبعاً أكلمك . أقدر أكلمك يمكن أكون مشغولة . أبعث لك أختى . خد بالك . إنها أصغر منى وأحلى منى ، وأشقى منى . ولكن أنا مش خايفة . إنها تحب شاباً يحبها . طبعاً أكلمك . . تعرف ؟ أقول لك حاجة . . أنا ما عنديش تليفون . . دا مجرد أمل . . حلم . حتى فى أحلامى بأكلمك . ومن غير تليفون طبعاً . طبعاً أقدر أكلمك . . »

واشتعلت النيران فى المصابيح وفى السقف وفى أجسام الراقصات وفينا . وانتفض الناس كأنهم عادوا إلى حياة الكهوف . وانفتحت شهيتهم للطعام

والكلام والصراخ . وتطلعت إلى الأجسام السليمة الحلوة التى أكلتها النيران . . ووقعت عينى على العرق الذى يتصبب من الأجسام . . هذا العرق هو دموع اليد والعنق والساق . . وأنظر إلى الوجوه فأجدها تضحك . . وإلى الوجوه فأرى عليها أصباغاً وألواناً . .

وأقول فى نفسى : إنهم مثلى . . وأراهم يقفزون يميناً وشمالا ويتساقطون على الأرض فى رشاقة ويضحكون كأنهم ولدوا الآن ، وكأنهم رأو الدنيا لأول مرة . . وأنظر فى عيونهم . فأرى أن العيون لا تشارك فى هذا الضحك . . كأن العيون نوافذ تطل منها نفوس متفرجة . . نفوس لا شأن لها فى هذا كله . . كل هذه الموسيقى، وهذا الحريق وهذا الدخان .

وأقول فى نفسى : إنهم مثلى . .

وعندما تنتهى الرقصات . . أرى وجوهاً باهتة . . شاحبة مرهقة ، تسترت عليها الموسيقى والأضواء والعطور . . ورسمها وزفها لنا وأخرجها فنان عظيم اسمه : الجوع . .

وساعده فى الإخراج : المال والبحث عن جديد . والبحث عن غسيل للنفس . .

وأقول فى نفسى : إنهم مثلى !

إنهم يتعذبون ساعات لكى يبتسموا للناس دقائق . . إنهم مثلى !

إن الراقصات والراقصين يظهرون على المسرح دقائق ولكن هذه الدقائق تستغرق منهم الساعات الطويلة من التعب والعرق والألم والقيود . كل هذا دون أن يراهم أحد . . إنهم مثلى !

وأحسست طعماً مراً على لسانى . . وأحسست كأن نفسى « تتظلط فى داخلى ، وأنى عاجز عن غسلها أو حتى رشها بالموسيقى أو الغناء . .

وأخيراً قلت فى نفسى : يا شيخ قوم . . أنت مش وش راحة . . قو يا شيخ !

وقمت ! لقد حاولت أن أغسل نفسى ، فانكسرت منى . . . ! !

تراب الإمبابي

التراب مر ، والغاز خانق ، والأصوات فوضى ، وبعد منتصف الليل . . وأناس فى جلابيب ، يروحون ويجيئون ، ووجوهم صفراء ، من الغاز أو من التراب ، أو من السهر ، أو من التعب . .

وأمام مسجد الشيخ إسماعيل الأمبابى فى إمبابة . اليوم آخر أيام المولد . مولد هذا الشيخ الذى لا يعرف أحد من أين جاء ولا لماذا اختار هذا البلد وهذا المكان وهذا اليوم . أما اليوم فتحدده وزارة الأوقاف ، سواء كان الشيخ ولد فيه أو لم يولد . أما لماذا جاء إلى هذا البلد فيقال إنه هاجر من بلده . . وما هو بلده؟ لا أحد يعرف . ويقال إنه سكن فى بيت سيدة عجوز . . وفى إحدى غرف الطابق العلوى من بيتها . وكان رجلا طيباً يصلى دائماً ويصوم كثيراً ، ولا يراه الناس إلا نادراً .

ويقال إن أحداً لم يره يشترى طعاماً ولا شراباً . ولم يره أحد يغسل ملابسه . ويقال إن هذا الشيخ كان يختفى نهاراً ويظهر ليلا . ويقال إنه كان يمشى فوق أسطح المنازل . وفى يوم ذهبت صاحبة البيت تطلب منه الإيجار — ككل صاحبات البيوت — ولم يكن فى ذلك الوقت خطاب الإنذار ولا التهديد ولا الحجز ولا الحبس . . إلخ المزايا التى يستمتع بها المستأجر الحديث ! ويقال إنها وجدت الشيخ إسماعيل ميتاً ، ووجدت

هالة من الضوء تخرج من النافذة. و وجدت تحت رأسه ذهباً. إن صاحبة البيت لم تنزعج من موت هذا الرجل الطيب ، وإنما راحت تفتش فى ملابسه . . وعندما اطمأنت إلى هذا الكنز قامت بالدعاية الانتخابية له وروت للناس معجزاته وكراماته . لقد أخذت الذهب ودفعت الثمن !

وكان الشيخ إسماعيل لهذه الأسباب وعشرات أخرى شيخاً صاحب كرامات فالفاتحة له . لقد قرأ هذه الفاتحة الليلة ألوف من أبناء الريف . جاءوا إليه وهم لا يعرفون من هو ، وناموا حوله رجالا ونساء وأطفالا . وشربوا القهوة والشاى والبوظة وامتلأت صدورهم بالحشيش . . الحشيش والتراب والغاز والطبلة و « فتيات الجيشا » المصرية فى ملابس ذابلة كأنها بشرتهن أو وجوههن أو حياتهن بعد منتصف كل ليلة . تقف فتاة الجيشا ترقص للزبائن أو المجاورين للشيخ إسماعيل الإمبابى ، واحداً واحداً . . وكل منهم يملأ يده منها . . من صدرها العارى المتحرك ، ويمسك وجهها ويديره ناحيته ويقرصها ويعطيها القرش .. ويعود يملأ صدره من الجوزة ، وفمه بكوب الشاى ويعتدل فى جلسته ويطمئن على شبابه .

والفاتحة لسيدنا الأمبابى .

الدين والجنس معاً ، يد فى يد ، شيخ وراقصة ، ما خور ومقام . هناك من يرقص وهناك من يبيع المصاحف ، وهناك من ينشد التواشيح وهناك من يطاهر الأطفال .

الدين والجنس معاً . وهذا موجود من قديم العصور . فقد كانت المعابد فى بابل والهند واليونان ومصر هى أماكن المتعة الجنسية وكان رجال

الدين هم الذين يديرون هذه المعابد ويختارون عشيقاتهم من الكاهنات و « الراهبات » . . وكانت أعياد الحصاد والخصوبة كلها صلوات للآلهة ، ومتعاً لرجال الدين ، وكما يفعل رجال الدين ، يفعل المؤمنون بهم . .

ومواطنونا فى مولد سيدى إسماعيل لا يعرفون هذه الحقائق — إن كانت حقائق — ولكنهم يجيئون من الريف ، بالجلاليب والطواقى والعصى . ويخوضون فى هذا البحر الغازى المعطر الصاخب الراقص ويعيشون أياماً . إنها فرصة يتحررون فيها من حمل الفأس والانحناءة على الأرض ، ويلبسون الأحذية ويضعون المحافظ فى جيوبهم ويضحكون للحمص والحلاوة ، والأرجواز وألعاب القوى و « السفيرة عزيزة » . فهذا هو المهرجان الذى يربطهم بالحياة .

ففيه المسرح والموسيقى والرقص والغناء وبكاء المواويل ودوخة الجوزة وشاى لله ياسيدى إسماعيل . . وما حدش واخد منها حاجة ! البركة يا سيدى إسماعيل . .

وسيدى إسماعيل يوزع البركة ولا يبخل بها على أحد . . إنه يعطيها للبائع الذى يضحك على عقل هؤلاء الريفيين السذج ، ويعطيها للريفى الذى باع زوجين من البط واشترى بثمنها حشيشاً ثم حمل ابنه الصغير إلى صندوق فيه ميكرفون وفى الميكرفون صوت صارخ أمام مقام الشيخ إسماعيل ويقول : اقطع . اقطع ياحاج محمود . . يا أبو إيد خفيفة ياحاج . . .
والحاج محمود هو : المطاهر . . أى الرجل الذى « يطاهر » الأطفال !

الجنس والدين معاً فى مولد سيدى إسماعيل ، أو أى سيدى آخر ..

وأكون ظالماً لو قارنت بين هذا المولد فى إمبابة و بين الموالد التى رأيتها فى ألمانيا ، إنها ليست موالد مشايخ ، ولكنها موالد آلهة ، موالد عنب وتفاح .. موالد نظيفة جميلة ليس فيها الحاج محمود ، ولا البوظة ولا عربات المصارين بالسمنة ، ولا فتيات « الحيشا » — نسبة إلى ملابسهن — ولكنى أكون ظالماً — وغيرى كذلك — إذا طالبت بإلغاء الموالد و إلغاء أعياد ميلاد المشايخ. فهذه الموالد مواسم للبيع والشراء. بيع الحمص والسودانى والبلح وأمعاء الحيوانات والمخدرات وهى ، أيضاً أيام للراحة فى حياة أبناء الريف . إنها إجازاتهم السنوية ، إنها نداء الذين والجنس معاً . إنهم يمرحون ، وإذا أخطأوا استغفروا الشيخ الإمبابى . فهو وحده الذى يحمل عنهم أخطاءهم . إنه هو الذى يمسك الأستيكة المباركة و يمحو ذنوبهم من اللوح المسطور المستور .

وامتلأت بالتراب : فى فمى وفى عينى وفى نفسى وأيقنت أن شعبنا فقير مريض .. أنهم تراب يدب على تراب .. أنهم أسوأ من التراب والسباخ ، تتزاحم عليهم أفكار وأحلام كالذباب والبعوض . جاءوا لينسوا الفأس والمحراث وصاحب الأرض ودودة المش ، ويدركوا نصيبهم من بركة الشيخ إسماعيل الإمبابى . فأضافوا إلى ترابهم ، تراباً آخر ..

الفاتحة لك يا سيدنا الإمبابى !

الشيخة عزيزة

كبدى عليك يا صبية .

كبدى على الفلاحة البيضاء التى تمد رجليها وتسند ظهرها إلى الحائط وتعطيك يديها وتقول : أنت محروس ؟

فأقول لها : أيوه أنا محروس .

فتسحب الطرحة البيضاء على وجهها وتقول : الحمد لله على السلامه يا سى محروس . .

وأقبل يدها . .

فتاة ككل فتيات الريف . . ولكنها طويلة عريضة بيضاء كلها حياء ، ثوبها أسود ، وعقدها أصفر ، وأساورها من فضة ، وخلخالها كذلك ، ولها دقة زرقاء ، ولها حسنة خفيفة . إنها آخر نقطة من قلم الطبيعة فى هذا الموال الريفى الجميل الذى يتردد بين البيت والترعة .

إذا رآها أبناء القرية . . أحسوا كأنهم أمام ملك من الملوك . . والملك لا يعرفهم . . . ولذلك يجب أن يقدموا له أو راق اعتمادهم .. فيرفع هذا طرف ثوبه ليكشف من لباسه الجديد أو حذائه الجديد . . أو يكشف عن الصديرى أو يلعب بحافظة نقوده أو يغنى . . أو يلعن كلباً عابراً أو ينادى اسماً وهمياً . . كلهم كذلك . .

حتى أبوها كان يراها فيخرج مسبحته ويدعو الله ويقول : والله نفسى أفرح بلك يا عزيزة . . والله لا يليق بلك إلا ابن العمدة . . .

إنه ابن العمدة فعلا الذى يشغلها . . إنه أحسن أبناء القرية . أليس أبوه عمدة ؟ وهل فى البلد أحسن من العمدة . . فى العالم كله . . لا أحد إلا العمدة . . إنه هو ابن العمدة الذى يشغلها والذى تفكر فيه . . وعزيزة لا تعرف كلمة « التفكير » . . ولكن كل حياتها الآن تفكير . . إذا نامت تعلقت بين النوم واليقظة . وإذا سارت فإنها تخوض فى شىء بين النوم واليقظة . . كل حياتها كضباب الفجر . . والشمس لا تطلع ، لأن ابن العمدة لا يظهر إلا مرة فى الإجازة السنوية . . وإذا ظهر فإنها لا تراه . وإذا رأته فرة واحدة . وإذا رأته فإنها لا تعرف كيف تفتح عينيها فيه . . إنها تحس أن رقبتها كفرع الجميز . غليظ ناشف وأن هناك ألف بلاص على رأسها . . إنها لا تعرف كيف تنظر إليه .. إنه ابن العمدة وهى بنت الخفير . .

وتوالت الأيام والسنين وطال ليلها . وضاق صدرها . والصبر نفد . والطعام يوضع أمامها وتحمله على أطراف أصابعها وتلقى به من النافذة حتى لا تراها أمها . ولا يسمعها أبوها . . ولم تعد تمشى على الأرض وإنما فرشت الأرض بالحصير . . إنها بدأت تصلى . . إنها ككل الصبايا إذا حارت الوحدة وعجزت اتجهت إلى الله . . ولكنها فى الصلاة لاتستطيع أن تنسى ما يقال عن بنات المدن وما يفعلن مع أبناء الريف . . مع ابن عمدتها .. إن كل فتاة تتمناه لها وتتمناه لأعز إنسان عندها .. والله وحده

هو الذى سينصرها على كل بنات المدن ويرد إليها ابن العمدة فى جلبابه الأبيض . والعصا فى يده . والسيجارة فى فمه . وكلمة السلام على شفتيه يطلقها دائماً كلما رأى أحداً من أبناء القرية .

وازداد ضعفها وطال نومها . . وكرهت النوم لأنه يحطم جسدها . وكرهت اليقظة لأنها تملأ عليها البيت بأبيها وأمها وخالاتها وعماتها وبنات الجيران . . كلهم جلسوا حولها وكل واحدة ترميها أو تهديها أو تغريها أو توجعها أو تلطمها بكلمة أو بصرخة أو بحكمة أو بتنهيدة .

والتقى الليل والنهار فى عينيها وفى أذنيها وفى غرفتها . . فهى لا تعرف الفرق بين أذان الفجر وأذان العشاء .. فكل أيامها ظلام . .

إنها عين أصابتها — هكذا تقول أمها .

إنه ضعف وقلة أكل — هكذا يقول أبوها .

والنبى البنت عليها أسياد — هكذا تقول خالاتها وعماتها .

يا اختى بسلامتها بالها مشغول — هكذا تقول بائعة المناديل والصابون المعطر . .

افسحوا لى الطريق — هكذا يقول طبيب المركز .

ونامت هى عن هذا كله وتمددت على سرير أسود . وسحبت على وجهها الغطاء . تدفع عن أنفها البخور . وحتى لا تصيبها حبات الملح . أو قطرات الماء من أيدى جيرانها . وهم يفقأون العيون الحاسدة ، ويرجمون الشياطين التى سكنت البيت .

وتلفت الطبيب يرى الشباب والجمال والهدوء والندى . . وعيوناً

كلوز القطن، ولوناً كزهر البرسيم، ولبناً وزبداً وخيط اللولى .. ويجىء الطبيب يوماً بعد يوم . وتراه الصبية وتضحك وتراه وتعتدل فى سريرها . وتراه وتقف وتنهض لتفتح له الباب . . وتذهب إلى بيته لتحمل بعض البيض والجبن لزوجته . .

ولكن الصبية تغيرت . . لقد نزعت ملابسها السوداء ولبست البيضاء .. الجلباب أبيض . والقميص أبيض والطرحة بيضاء . والعقد أصبح مسبحة طويلة ... فإذا رآها أحد من أبناء القرية قال لها : العافية يا ست الشيخة . . الدعوات يا شيخة عزيزة . .

وتدعو لهم جميعاً . .

ويقال إن الذى أصاب الشيخة عزيزة كان بسبب حقن الطبيب . . ويقال إنها القصة التى سمعتها عن زواج محروس . . أو الحمى التى أشعلت دمها . وشوت لحمها وأطارت عقلها . .

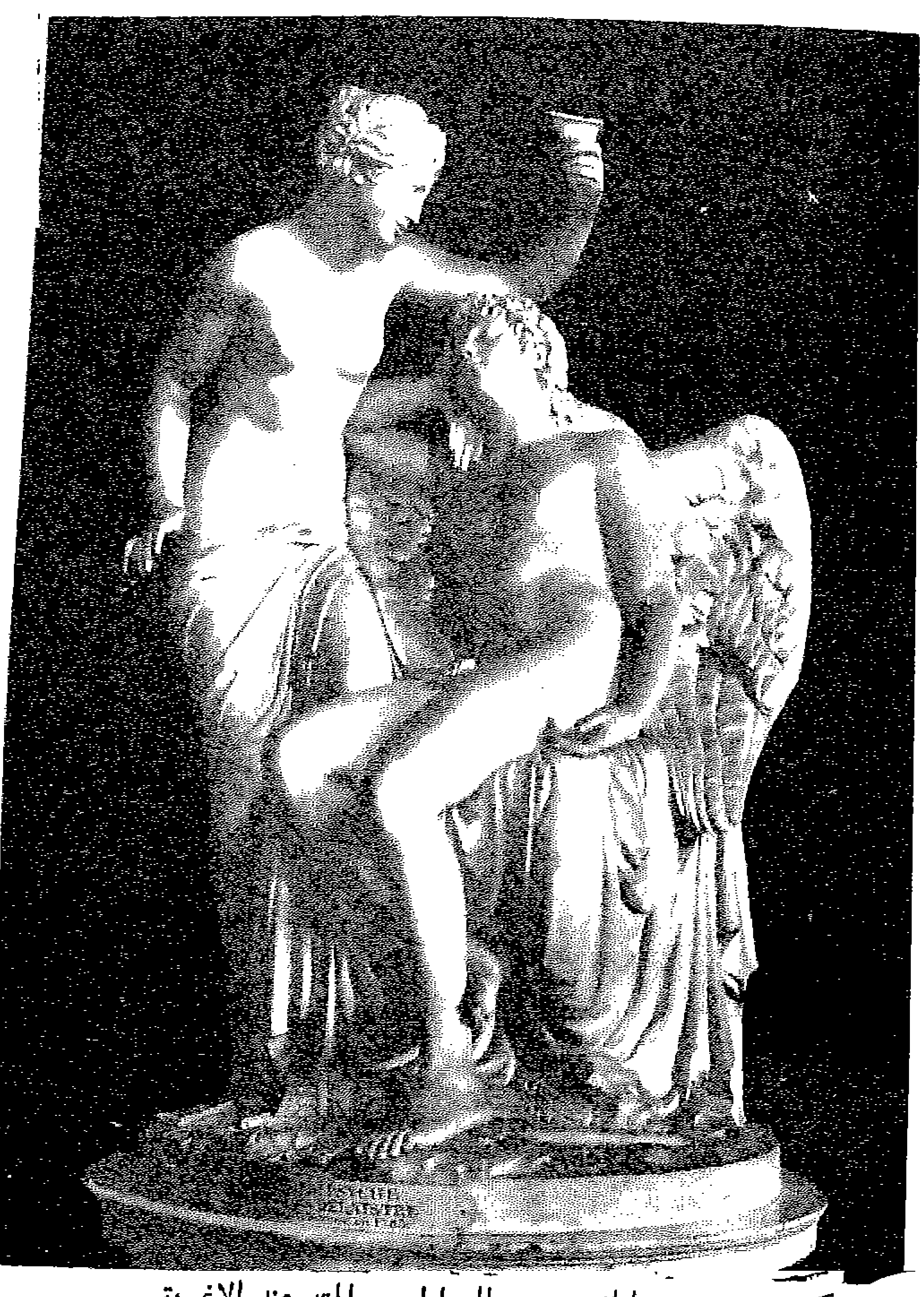
لا أحد يعرف سبباً لهذا التغير كله . . ولكن القليلين جداً هم الذين يقولون إنه الحب .. وإنها الصدمة التى أسقطت كيانها . وعندما سقط ارتفع الغبار . ثم تماسك هذا الغبار الأبيض وأصبح الشيخة عزيزة .

واليوم ظهرها إلى الحائط . وتجلس على حصير . وفى يدها مسبحة . ورجلاها . . ممدودتان . . وجميلة وحولها طفلان يلعبان . إنهما ولدا « محروس » ابن العمدة من خادمته « فطومة » . . والشيخة عزيزة لا تعرفهما . .

وبعد صلاة الجمعة تفرق الناس . كل إلى بيته . وتجمعنا نحن وذهبنا إليها . .



متعة التدخين تكتمل
بالسيجارة الرقيقة
كليوباترا
كنج سايز - بفم فلتر
صنع بمصر
CLEOPATRA
KING SIZE
سيجارة عربية صميمة
خليط من أجود الأدخنة العالمية
٢٠ سيجارة
١٨ قرشاً
انتاج الشركة الشرقية للدخان والسجاير "ايسترن كومبانى"
الموزعون في البلاد العربية
الكويت - السيد/ عبد العزيز سعود البابطين
الإمارات المتصالحة - قطر: السادة/ يوسف حبيب وإخوانه
البحرين - المؤسسة التجارية الشرقية
العراق - السيد/ طالب مصطفى خلف
اليمن - شركة التبغ والكبريت الوطنية
عدن والجنوب العربي - وكالة الأهرام التجارية
سوريا - الحاج عيسى سالم وأولاده
المملكة العربية السعودية - الحاج عبد الوهاب محمد علي بحراوي
دول غرب أفريقيا - فروع شركة النصر للتصدير والاستيراد في هذه الدول



« كيوبيد » و « سايك » . . إله الحب وإلهته عند الإغريق

(تمثال للفنان « ديايستر » بمتحف اللوفر ، بباريس)

بقايا الكأس . . والشباب
لوحة من فن « الجرافير » للفنان « ن . فلوجيل »

ونظرت لى وضحكت وقالت : أنت محروس ؟

فقلت : أنا محروس يا ست .

وسحبت طرحتها البيضاء وغطت وجهها ومدت يدها وتعرى ذراعها وظهر بصيص من صدرها وقالت : الحمد لله على السلامة ياسى محروس .

الله يسلمك يا ست عزيزة . .

وقبلت يديها بشفتى . .

وبعينى قبلتها كلها . .

واستغفرت الله !

بل أحد الآلهة !

ساعة كاملة يحدثنى ولا يرانى . إنه فى القمة . وسكان القمم يرون كل شيء صغيراً أو لا يرونه . وفى عبارة مسرحية حزينة قال : انظروا أيها الناس . سيجيء ذلك اليوم . سأكون إلهاً !

صاحب هذه العبارة والعبارات التالية شاب فى العشرين من عمره . نحيل زائغ العينين . هارب اللون . لا طعم للحياة عنده . لأنه فقد أسنان الشباب ولا معنى لهذه الدنيا كلها . فهو يراها بعين شيخ يائس أو ملاك طاهر .

إنه يتكلم دائماً ويقول : لم أحضر لاستشارتك . أنا اتخذت قراراً . فلن أهتم بشيء مما أدوسه بقدمى . فالذى أدوسه هو الذى سيفنى . أما الذى فوق رأسى فهو الذى سيبقى . كل ما يعلو رأسى من نجوم وشمس وقمر . كل هذا هو الخلود . وأنا مشغول بالخلود بالنجوم التى تلمع دائماً . وأنا سأبقى مثلها . لأننى أعيش عليها . والذى يعيش على الفكر يبقى كالفكر . وأنتم ماذا تصنعون . الورق والحبر سينساه التاريخ . الشهرة والمجد أكاذيب ، تكتبونها وتصدقونها . المال قطع من المعدن الفانى تصنعونها وتجرون وراءها وتعبدونها ما حياتكم ؟ ما آمالكم ما دنياكم .

ودققت النظر فيه مرة أخرى . وكدت أسأله . فأجابنى : ماذا

ستقول عني ؟ . . مجنون . أرني عاقلا واحداً في هذه الدنيا ، الجاهل الذي يقتل إنساناً بريئاً . ماذا تسميه ؟ مجنون . والعالم العبقري الذي يقتل الألوف من الأبرياء ماذا تسميه؟ عبقري . بل مجنون ، لا أحد عاقل في هذا العالم . لا أنا ولا أنت . هذه حقيقة لم أعرفها من الكتب التي تضعها أمامك ولكن من نفسي . إنني لا أنتظر السماء حتى تسقط الماء الذي يبل ريقي . ولكنني أنادي الماء من داخلي من جوف الأرض فأفكاري « ارتوازية » بل من جوف الوجود . إن أفكاري من الكون . إنها كالأشعة الكونية.. ستقول مجنون أيضاً .

وعرف هذا الشاب العزلة والغرفة المظلمة . والفراش البارد . والليل الطويل ولوى ذراعيه ويديه . وضغط على نفسه بجسمه وأسنانه وراح يحلم بكل شيء يتمناه ولا يناله.. وجعل يلوي أفكاره كما يلوي جسمه . ومن أفكاره يقيم سلماً طويلا إلى النجوم . وبعد أن يصعد هذا السلم الطويل يتساقط رأساً ويداً ورجلا كما يفعل الحواة في الهند . .

قلت له : أنت في خلاف مع أهلك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع أصدقائك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع صديقاتك .

وكان لابد أن ينظر إلى مصدر هذا السؤال . إلى فمي . وكأن الذي اختفى في فمي أفعى سامة . يريد أن ينتزعها بيديه أو يطلق عليها الرصاص .

ولكن عاد التسامح إلى وجهه وقال : فاطمة ؟ لقد تركتها . أحببتها عشر سنوات . لم أنطق بكلمة نابية . جعلت مسافة بيني و بينها . والذين يحبون . يعرفون معنى المسافة . ولكن سبقني إليها شاب آخر يسكن فى نفس البيت . وأراها كل يوم الآن تلبس له وتتزين له وتحبه أيضاً . . ولكن جمال المرأة لن يبقى . هل رأيت العدل؟ أبداً ! و إنك ترى الناس العادلين ويفنى العادلون ويبقى العدل . هل رأيت الجمال ؟ أبداً . إنك ترى مخلوقات جميلة . ستفنى كلها . ويبقى الجمال نفسة .

وقلت : وهى لا تحدثك ؟

قال ، وهو يضغط على نفسه ويلف ذراعيه حوله ويضم ساقيه كأنه نائم فى فراشه : وسلوى قد أحبت عاملا . أحبت أحد العمال .. طويل عريض . يكسب القرش ويقدمه لها . . هذه عرفتها وأنا فى السابعة من عمرى . وكنت أصنع لها المعجزات . كنت أمسك العصا فى يدى وأقف على سطح البيت وأضع العصا فى وجه القمر . وأجعل من القمر مظلة تقيها مصائب الليل . أى مصائب الدنيا كلها . . ولكنها فضلت المصائب وسقطت العصا من يدى ونزلت و بقى القمر ينتظرنى . سأصعد إليه . . لست مجنوناً !

وسكت ثم قال : سأعيش عيشة نبيلة أقصد شريفة سامية . لا حياة النبلاء فأنت تعرفهم . . سأعيش نظيفاً عفيفاً . كالشاعر الإنجليزى بيرون !

قلت : لقد عرف عشرات النساء وأنجب طفلا من أخته .

قال : هذا كذب ، هذا ما تصنعونه أنتم إنكم تشوهون سيرة الذين

ماتوا . سأعيش كالشاعر جيته . أحكم الحكماء .

قلت : وهذا الشاعر قد عرف مائة امرأة على الأقل . وكانت آخر واحدة عرفها فى السادسة عشرة وكان هو فى السبعين . وكان له ولد من زوجة ابنه .

وكان لابد أن يثور على هذه الاعتراضات التى تندفع كالإبر تحطم أفكاره التى تشبه بالونات الأطفال ولكنه لم يفعل وإنما سحب على وجهه غطاء من الهدوء الشاحب . وأخرج من جيبه ورقة وقال هذا هو الذى سيبقى !

وكانت صورته هو .

وكلام طويل عن الفتيات اللاتى تركنه وبحثن عن غيره . أهى قصة العنب المر ؟ أهى قصة الثعلب الذى مد رأسه إلى العنب فلما لم ينله انسحب قائلا : إن العنب مر . . أهى قصة الشاب الذى مد يده وأفكاره وأحلامه وأوهامه إلى المرأة والدنيا وأعلن أن طعمها مر فترك الدنيا كلها وجعل يعيش فى غرفة مقفلة بأفكار مظلمة . إن حنينه إلى القمر قد ردده كثير من العباقرة والمجانين . إن قوله بأنه سيكون إلهاً . قد ردده كثير من الفلاسفة.. إنه يسير فى خط مستقيم ولكن الاتجاه خاطئ . . إنه كالقنبلة . والقنبلة مجموعة من القوانين العلمية . وهى تسير فى خط مستقيم . وهى متفجرة . ولكنها قنبلة مهلكة لغيرها ولما فيها . . وهو كذلك . قنبلة متفجرة قاتلة له وحده !

وما الفرق بين العقل والجنون . شىء قليل من المبالغة . إن الناس

تحت الجلد متشابهون .

وخرج الشاب وقد تفاهمنا . وكان لنظراتنا معنى واحد هو : الرثاء..
له ولى !

وكان متواضعاً . إنه لم يعلن أنه الإله الوحيد لهذا العالم كله . وإنما هو أحد الآلهة . . إنه مسكين لايعرف كيف يتحدث إلى أحد فى بيته . أو فى الشارع أو المدرسة أو أبيه أو أمه ولا يعرف كيف يأكل ولاكيف ينام . .

مسكين لأنه إله !

الفندق المفتوح . .

يخلق من الشبه أربعين — عبارة غير مريحة قلتها وأنا أدخل السينما . . فقد وجدت أمامى نفس الوجه . نفس الجبهة الرخامية . والأنف الرومانى وصدر عال كأنه البركانان « فيزوف » و « استرومبللى » إنها تشبهها تماماً . . إذا مشت انحنت إلى الأمام كغصن شجرة تعلقت فيها ثمار كثيرة . . أو كأنها تجر وراءها موكباً من كل هؤلاء الناس . إنها إذن ممثلة السينما الإيطالية « اليانوره ... » . لقد نشرت مجلة « أودجى » الإيطالية أنها ستحضر إلى مصر لتشترك فى افتتاح أحد الفنادق .

لقد قابلتها أول مرة فى فندق مينا هاوس . ونشرت لها مجلة « الجيل » صورها بالمايوه فى عز الشتاء وظهرت الصور بالألوان . ولكن « اليانوره » لم تعجبها الصور . فقد بدت فيها سمينة جداً . و « جداً » هذه معناها مليمتر واحد ، على الأكثر !

وبعد ذلك قابلتها فى روما فى العام الماضى . وانتظرت منى أن أقول لها : ياه انت خسيت كده ليه؟ ولكنى لم أقل شيئاً من هذا . فنبهتنى إلى ذلك . وقد لاحظت فعلا أنها نقصت هذا المليمتر . . والسبب هو الفساتين . فقد كانت فساتينها واسعة كجلد اليوسفندى فأصبحت ملتصقة كجلد البرتقال . وجلسنا نتناقش فى الموسيقى والأدب وفى المسرح وفى

السياسة . وقلت لها بصراحة إنها تقلد ممثلة إيطالية أخرى اسمها «اليانوره روسى دراجو» وغضبت منى . ولكنها الحقيقة . . وظللنا ساعة كاملة نتذكر طعاماً شرقياً أو مصرياً يبدأ بحرف « واو » هكذا قالت هي . وقالت إنه عبارة عن شوربة خضراء يوضع فيها الأرز والخبز . وأخيراً اكتشف أنها تقصد الملوخية .

يعني بالاختصار هي « صديقة عزيزة » . هي التي اختارت كلمة «صديقة» . أما عزيزة فهي من عندى أنا . وهم أو غرور . كل شيء جائز . ولذلك اندهشت جداً . كيف أنها حضرت إلى مصر ولم تسأل عنى . وكيف أننى فوجئت بها فى السينما مع شاب ليس وسيما ولا أنيقاً ويجلس فى الصالة وليس فى البنوار — يعنى الحال من بعضه . وحاولت أن أتجه إليها . ولكن الزحام ورائى والفيلم قد بدأ . وأخيراً جلست فى مقعدى . وجلست هى ورائى بصفين .. ولكن رأسى اتجه إليها كأنها القطب الجنوبى ورقبتى عقرب البوصلة وشممت رائحة عطرها . إننى أعرفه وله قصه واسمه اسكيباريللى . وعطرها يدل عليها كما يدل الدخان على النار . وهى نار . وحاسة الشم عندى قوية جداً . وكنت أتصور أننى الوحيد بين الناس ولكن قال لى « محمد عبد الوهاب » إنه يتذكر أسماء البلاد والشوارع عن طريق الأنف . . وفى أثناء الفيلم أحسست بوجع فى جنبى فابتسمت ، لقد ظننت أنها تقرصنى ولكن اكتشفت أن المسافة بينى وبينها لاتسمح بهذه المداعبة . . وتحول القرص إلى وخز . . وبدأ ينتقل من مكان إلى مكان . . بل يبدو أنه اتخذ شكلا انسيابياً ،

لقد جعل يتلوى كالثعبان .. ويقفز من جنبي إلى بطني إلى ظهرى . . لقد أحسست كأن فى داخلى ثعباناً يطارد عصفورة فى قفص صدرى . ثم ابتلع الثعبان العصفورة ولم يبق إلا هو وحده متكوماً فى جنبي الأيسر .

ونهضت من مكانى أدوس أقدام الناس . وإحجب عنهم الفيلم ولم أنس أن أنظر ورائى . . إنها هي . . وإذا لم تخدعنى أذناى لقد سمعتها تتكلم العربية . . واتهمت أذنى . فاللغة العربية مطبوعة على لسانها كالأفلام الأجنبية .

وفى الفراش بالتليفون قال لى الدكتور إنه مغص كلوى . .

إذن ليست هذه « اليانوره ... » . . وإلا لانتقل الألم من الكلى إلى فوق . . إلى الفندق الذى وجدته مفتوحاً ودخلته . . وأقفلت أبوابه على حقائبها ونسيت مفتاحه معى : إلى قلبي !

ساعة من الراحة !

حاولت أن أتملص من الحبال التى تربطنى كل صباح كأننى خيمة صغيرة فى مهب الريح . . حبال غريبة . . إنها تسحب الغطاء من فوقى ، ثم تسحبنى من فوق الفراش ، وتدفعنى أمام المرآة ، وترمى فى وجهى بالفرشاة والصابون ، وتلقى بالملابس فوقى ، وتضرب الباب ورائى وتركلنى إلى مكتبى ، وتقلع عينى وتقذف بهما على الورق ، وتلصق سماعة التليفون بأذنى ، وتصب فى فمى خليطاً من الذرة المحروقه ونوى البلح والكاكاو (القهوة يعنى !) . . وتعصر أصابعى على القلم ، وتهز الأرض تحت قدمى ، والدنيا أمامى . . كل يوم أشعر كأننى طفل فى طريقه إلى المدرسة لأول مرة ، وأكاد أبكى وأقول : عاوز ماما . . !

. . . وأقول «حاولت» أن أمزق هذه الحبال .. وخرجت منها .. وانطلقت إلى الريف . . إلى قرية بالقرب من الزقازيق . . والطريق ناعم ، والأشجار هامسة . . ولكننى لا أستطيع أن أملأ عينى بما أرى .. فالسيارات ورائى وأمامى وإلى جوارى وأنا أقاوم فى نفسى استعداداً هائلا للسرحان . . إن غيرى يستطيع أن يقود سيارة ويروى النكت ويداعب فتاة حسناء ويدخن سيجاراً فى وقت واحد . . وأنا أستطيع هذا كله بشرط ألا أقود

السيارة . . ولكن هذا لا يهم ما دمت سأمزق هذه الحبال هناك . . بعد هذا الطريق . . ستحرقها أشعة الشمس ، ستحرقها دموع المظلومين من الفلاحين ، سيبخرها النسيم العليل . . إننى ذاهب إلى الشمس لكى أراها وهى ترتفع فى ثوب النايلون الذهبى . . أريد أن أرى الشمس التى يصفونها بأنها فى جمال صوفيالورين وبريجيت باردو . . أريد أن أراها وهى تغتسل فى طين البرك ، ثم تتسلق السماء على بيوت من الوحل . . وتبدو جميلة ... أريد أن أستحم مثلها ، فأترك طين المدينة وحبرها ، وأبدو لا فى جمال مارلين مونرو ، ولكن فى رشاقة زوجها وصفاء عقله . . ودخلت القرية .. وعلى ضفة جدولها الصغير ، وتحت أشجارها جعلت أتطلع فى صفحة قاتمة كأنها قهوة مخلوطة باللبن . . ورأيت ما يراه النائم . . رأيت قرية أرضها من الرخام أو من البلاستيك . . بيوتها من أحجار ناعمة ، إذا لمستها بيدك غسلت يدك كأنها قطع من الصابون .. وفى نوافذها ورود ، وبين الورود طيور ، وعلى أبواب البيوت يقف شبان فيهم حياة وفى عيونهم ذكاء . . كل شىء فى القرية له اسم . . البيوت والشوارع والناس والكلاب والأبقار . . لها أسماء يعنى لها قيمة ، يعنى لها أشياء تخصها وحدها . .

وكأن حبلا شدنى من عنقى واعتدلت . ولم أكن أحلم وإنما تذكرت قرى سويسرا !

والساكن الحقيقى للقرية المصرية لا يمكن أن تراه . .

إنه رجل هزيل يعيش فى ظل جاموسته والجاموسة هى مصدر حياته . .

إنها الأرض والمحصول والفيضان ، وبنك التسليف الزراعى ، وهى المصطبة العالية التى يقف فوقها ليشكر الله على ما أعطاه ! إن الجاموسة هى التى تفتح بيته . . لا بأن تضربه بقرنيها . . ولكن هى رأسماله الحى ، هى اللبن الذى يشربه ويبيعه ويلبس منه هو وزوجته وأولاده . . إنه يجد فى قربها كل حب ، وفى رائحتها كل عطر . . وكل محاولة للتفريق بينه وبينها فى الحياه أو فى النوم أو فى المعاملة . . يرفضها ويثور عليها . .

ونظرت إلى بعض الشبان الذين تمددوا على جانب من الترعة .

وقلت : من هؤلاء ؟

وعرفت أنهم بعض الشبان التافهين الذين تعلموا فى المدرسة واكتفوا بقدر هزيل من المعرفة . . ورفضوا أن يظلوا فلاحين ، وأن يذهبوا إلى المدينة . . لقد تركوا المحراث إلى القلم ، والحقل إلى المدرسة . . وأصبحوا يرون كل شىء صغيراً تافهاً . فالقرية أصبحت فى حجم الحذاء ، والأب فى حجم الفأر ، والأم فى حجم الدجاجة . .

ونظرت فى ساعتى . . وأحسست أننى كعقرب الدقائق يتحرك على خطوط فى دائرة مقفلة . . وأن هذه الخطوط لم ترحم قدمى ولا رأسى . . وأننى جئت هنا أطلب المستحيل . . لقد تمنيت أن تعلن الطبيعة حالة الطوارئ فى القرية . . فيلبس الناس أجمل الأزياء ، وأن تغتسل الترعة بالماء والصابون ، ويبدو الفلاحون وكأنهم على مسرح الأوبرا يمثلون قصة « القرية السعيدة » أو القرية النموذجية فى المريخ .

ونهضت كأننى شراع مركب التف حوله المراكبية وشدوا حباله ،

لكى تقلع السفينة من وحل وطين وعرق وقرف . . وأنساب إلى مكتبي إلى ورق والحبر . وأنظر من النافذة فأجد الشمس تغرب وأرى الدخان وأسمع الضوضاء تنهال على الدخان وعلى رأسى فتغرب جميعاً مع الشمس !

وتلمست الحبال الملفوفة حول رأسى وعنقى وقلبى . . وحمدت الله ، فقد كانت أقوى مما تركتها !

وهذه هى الميزة الوحيدة للريف : إنه ينعش إحساسنا ويجلو أفكارنا فنشعر بمتاعبنا أوضح وأقوى !

موصوف لى : ب . ب

همس فى أذنى قائلا : ب. ب . . هذه هى الوصفة الأخيرة ! جربها . دعك من كلام الدكاترة . . كلامهم فارغ ! اسألنى أنا !

وب . ب هذه مع الأسف ليست اختصاراً لاسم كوكب السينما : بريجيت باردو ! ولكن اختصاراً لشىء آخر . .

وذهبت فوراً إلى « النادى الثقافى » وطلبت من الخواجة خرالامبو أن يصنع لى هذه الوصفه فوراً فإننى لم أنم منذ ثلاثة أيام لا ليلا ولا نهاراً.

لقد جربت الحبوب المنومة . لقد جعلتنى أنام . أسقط فى بئر عميقة مظلمة ولا أعرف كيف نزلت إليها . ولكن فى الصباح أعرف بوضوح أننى سقطت برأسى . فرأسى ما يزال يوجعنى . وما أزال دائخاً . كان القرص المنوم حشرة غريبة ، تسللت إلى داخلى وسكنت هناك . وكان لابد أن أقاومها بالمبيدات الحشرية من الشاى السادة والقهوة المرة . . وأظل أطاردها حتى تختفى . ويجىء الليل ولا أعرف كيف أنام . . فأعود إلى الأقراص المنومة . . وإلى الشاى والقهوة . . وأخيراً قررت أن أعدل عن هذه المعركة . . وأن أبحث عن طريقة أخرى . . .

قال الخبراء : عليك باللبن الساخن قبل النوم . .

وكنت أشرب ما تنتجه بقرة هولندية . ويظل الأرق يمسك رأسى

كأنه كورسيه من حديد . .

وقال الخبراء : بل عليك بالدش الساخن .

فى الصيف ؟ فى هذا الحر : ؟ يقولون : ما يهمش ! . .

وعانيت حرارةالماء ، وحرارة الهواء ، واكتويت بالعرق . وهلك النوم فى داخلى . . وجاء ورثة النوم : الصداع والأرق والإمساك يطالبوننى بأن أوقع على كل ساعات الليل كأننى حارس لأحد الورش . . أو عسكرى الداورية . . وكنت أفعل .

وقال لى ناقد رياضى : بعض الحركات الانسيابية . . .

وفى الظلام كنت أقول لنفسى : يمين . . شمال . . محلك سر . . إلى الأمام انظر . . كتفاً سلاح . . .

وهرب النوم منى ومن الذين ينامون فى الغرفة التى تحتى . . .

آه . . لم يبق أمامك إلا الموسيقى . . إن النوم يتسلق السلالم الموسيقية إلى عيون الناس . لماذا ؟ لأن هناك قصة إغريقية قديمة تقول : إله النوم اسمه « مورفيوس » . وكان مورفيوس هذا يمسك مزماراً وينفخ فيه . . فإذا الطيور تتساقط من السماء ، والوحوش تخرج من الغابات ، والحشرات تنطلق من الصخور . . وكلها تمشى وراءه وهى مغمضة العيون . إن موسيقاه هى النوم . . وفتحت الراديو وكانت موسيقى . . روك أند رول . وتشاتشاتشا . . وباسادبلو . . وتويست ويبدو أن السلالم الموسيقية لهذه الرقصات عصبية متشنجة . لقد كانت تقذف بالنوم من فوقها بعيداً عنى . . ولم أنم !

ومن النافذة أرى على السطوح المجاورة أناسا ناموا . . تكوموا والتووا كأنهم بمغص سطحى . . وفى . نومهم يتحركون كالدود فى الطين . . وقد أسند كل منهم رأسه إلى شبه وسادة . . من قوالب الطوب ... وهات يانوم . . وأتلفت حولى . . الأنوار كأنها عيون ساهرة . . وبدأت تطبق أجفانها الواحد بعد الآخر . . والأصوات بدأت تتلاشى . . . إن النوم يتمشى من بيت إلى سطح من أب إلى أم إلى طفل إلى كلب . . إن النوم ساهر هو الآخر .. مسكين لقد طار النوم من عينه .. ومع ذلك لم يشأ أن يمر على غرفتى . .. إنها رائحة الوصفة الملعونة : إنها رائحة ب . ب — أقصد البيض والبصل !

هارب . . هارب !

غريق فى بئر عميقة . . هذا هو شعورى . . إننى أعرف بالضبط كيف كان يشعر النبى يوسف . . فى الظلام والوحدة والرطوبة واليأس من النجاة . . وأصوات الذئاب عند السطح ، وفحيح الأفاعى عند القاع . . وفى يدى حبل أرمى به هنا وهناك كما يفعل رعاة البقر . . لعلى أصيد صديقاً أو زميلا أو أى أحد . . وكان هذا الحبل هو حبل التليفون أتسلل به إلى البيوت . . إلى بيوت أعرفها و بيوت لا أعرفها . . بصورة آلية . . بل إننى أحياناً أترك أصبعى هى التى تفكر لى وأحس أن قرص التيلفون هو جبينى وأنا أهرشه بأصبعى ساعة وراء ساعة . .

ولم أسأل نفسى لماذا أنا غريق ؟ ومنذ متى ؟ وكيف أخرج من هذه الحيرة ؟ لم أسأل نفسى . وإنما استسلمت لهذه الحالة النفسية . فأنا لا أحاسب نفسى أولا بأول . . وفلتت منى كلمة : هارب ! !

نعم هارب . هذه هى الكلمة التى تصفنى تماماً . هارب . فأنا لا أكاد أجد نفسى وحدى حتى أمد يدى إلى التليفون . . أريد أن أشغل أذنى . وأمد يدى إلى كتاب أريد أشغل عينى . وأنطلق إلى الشارع أهتم بكل شىء . . أريد أن أشغل رأسى . . وأتزاحم مع الناس . . وأحس أنهم يمشون فى مظاهرة احتجاج . . احتجاج؟هذه هى كلمة أخرى

تصفنى أيضاً . . فأنا أريد أن أحتج على الهموم التى تطاردنى دون سبب .

وفى الليل عندما أعود إلى البيت أحاول أن أهرب من اليقظة إلى النوم . . أريد أن أتسلل بنفسى وراء أسلاك شائكة اسمها الأرق . . فألقى بأقراص النوم فى حلقى . . أريد أن « أسهى » نفسى وأنام . . وتقوم محاولة ضخمة للتمثيل على نفسى . . فأنا أصبح كالمسرح الكبير . . تنطفىء فيه أنوار الصالة بالتدريج . . مصباحاً وراء مصباح . . ثم تضاء الأنوار على المسرح . . وأفرح بانطفاء الأنوار ويدق قلبى الدقات التقليدية . . وأتشبث بالستار . . لا أريدها أن ترتفع . . أريد أن أسدلها على قصة اليوم . . على قصة البئر والغريق . . ومع ذلك ترتفع . . الستار وأرانى معلقاً فى السقف وأجدنى مكرهاً على الاستماع إلى مسرحية لا أريدها ولا أحتملها كل ليلة .

ويكفى أن أتقلب فى فراشى . . لأصحو من جديد وأحاول مرة أخرى إطفاء الأنوار . . وأشعر أن فكرة واحدة متسلطة على رأسى طول الليل . . وأحاول أن أطردها . . وأحاول أن أتركها حتى تنطفىء وحدها كأنها سيجارة . . وأفاجأ بأن السيجارة قد أصبحت « عقباً » . . وبدلا من أن ألقى بها بعيداً عنى فإننى ألقى بها فى داخلى . . فتشتعل حرائق كبيرة فى نفسى من الدخان والعرق والنار والأرق . . إن الحرائق تولد من سجائر صغيرة . وهذا صحيح مع الأسف !

وأتطلع إلى الساعة فى يدى أو على الحائط . . وأشعر أن الساعات

تشبه الدائنين . . كلهم واقفون وكلهم يطالبوننى بشىء . . بديونى القديمة . . إنهم يشبهون اليهودى شايلوك الذى يتقاضى الديون دما ولحماً. وإن شايلوك ليس مجرماً . . إنه ينفذ العقد المبرم بينه وبين المدين . . وهو نفس العقد الذى أبرمناه نحن . . فوجودنا هو توقيع كبير على وثيقة حياتنا . . وحياتنا عمل . . إما العمل وإما الموت . . والموت ليس معناه شيئاً كبيراً . . فحياتى بالنسبة لى شىء هام ، بالنسبة للناس لاقيمة لها . . وإذا مت فليس هذا يعنى أحداً سواى . . فأبى مات وأنا أعيش بعده . . وجدى مات وأبى عاش بعده . . ووجود الناس اليوم بالملايين معناه أن الناس فى استطاعتهم أن يعيشوا بعد أن فقدوا الملايين من الأعزاء عليهم .

وأحياناً أنظر إلى الساعة . . وأرى عقاربها . . عقارب فعلا . وأخاف إذا اقتربت أنا منها . . وأخاف إذا ابتعدت عنها . .

هارب أنا . .

هارب من الشىء الذى لا يهم أحداً سواى . . من الهموم التى تنبت فوقى كأوراق الشجر . . هارب من الذى لا أقوله ، ولو قلته لازداد عذابى . . فإننى أكره أن أرى الرثاء فى عيون الناس ، وأكره أن أرى الشفقة على ألسنة الناس . . إننى أحرص على همومى . . وأرعاها كما لو كانت قطيعاً من الأغنام . . إننى أحرسها وأهش عليها والحقيقة أننى أحبها وأحتمى بها . . فأنا الآخر مثلها خائف من ذئب اسمه : الناس !

وأبحث عن قرص التليفون أديره . . أبحث عن الرقم الذى كنت أديره فترتفع مظلة واقية من الغرق . . وأخرى من النجاة . . . إننى هارب منى !

إنها حكاية غفير

لأسباب كثيرة يطلق أحد أصدقائى على زوجته اسم « الغفير » ربما لأنها تنام دائماً وتتظاهر باليقظة ، أو لأنها تنام دائماً وراء الباب أو تحت الشباك ، أو لأنها لا تكاد تراه حتى تقف على حيلها فى حالة « محلك سر » أو لأنها تعوج رقبتها فى حالة « إلى اليمين انظر » ثم تضع أحد أطفالها على صدرها فى حالة « كتفاً سلاح » ...

وأترك الكلام لصديقى . . .

كل يوم أعود إلى البيت أتصور أننى أخطأت فى العنوان . أخطأت فى الطابق أو فى الشقة . . وأقف وراء الباب فى حيرة فأنفى يقول : زريبة !!! وأذنى تقول : ورشة !!!! وعينى تقول : ملجأ !!!..وعقلى يقول : مجنون ! ! ! وقلبى يدق بصوت مرتفع كأنه يصفق لعقلى ! ! !

وأنا أكره أن أجد الغفير صاحياً ، وأكره أن أجده نائماً . فإذا كان صاحياً تحولت بسرعة إلى أحد اللصوص . فالغفير يسألنى : أين كنت ومع من ؟ فإذا قلت كنت مع بعض أصدقائى . كان رد الغفير : ومن أين جئت بهذه الرائحة العطرية ؟ وإذا اعترفت بأننى كنت مع بعض الرجال والنساء ، فلابد أن أذكر اسم كل واحدة ولون فستانها وأين كنت أجلس وماذا قلت وماذا قالت .

وأكره أن أعود إلى البيت فأجد الغفير نائماً . إننى أكره الصمت، أكره الوحدة . أريد أن أتحدث إلى أحد . أن أقول أى شىء أن ألعن أحداً أو شيئاً . وقد حدث كثيراً أن عدت إلى البيت فوجدته ساكناً كالمقبرة . فضربت أحد المقاعد برجلى فسقط المقعد وتزحلقت على الأرض ... وجاء صوت الغفير من الداخل : مين اللى بره ؟ فقلت: أنا الحرامى !

ورقعت زوجتى بالصوت ! ! ! .

وبعد ذلك عرفت أن الغفير لم يكن ساذجاً عندما تصور أننى أنا الحرامى. فأنا فعلا أحاول أن أسرق هذه الأسرة .. أحاول أن أسرق راحتها، أن أسرق أموالها . . . إننى أتآمر على أطفالى ، أريد أن أسلبهم والدهم ... وأن أقدمه هدية لفتاة أخرى ، لقد مللت الحياه مع غفير ، وأريد أن أعيش مع زوجة .. فزوجتى غفير يحرس أولادى ويحرس بيتى ويحمى مستقبلهم منى وأريد أن أجرب القيام بدور صاحب البيت ، لا سارق البيت !!! .

ولاحظت أخيراً أن زوجتى تسلطنى على أولادها فأنهال عليهم ضرباً . أى أننى أقوم هذه الأيام بدور « نبوت » الغفير .

ولاحظت أيضاً أننى أشعر بارتياح عندما أضرب أولادى . إن أولادى يشبهون الغفير . . فأنا أضرب الغفير فى كل واحد منهم ، فأنا أفقأ عين الغفير فى ابنى الأكبر ، وأكتم أنفاسه فى ابنتى الكبرى ، حتى الطفل الرضيع أتهجم عليه ، كأننى أحاول أن أرده إلى مكانه من بطن أمه !! .

وكنت أقول لنفسى إن الزواج كحقنة البنج لا يشعر بها الإنسان إلا لحظة واحدة وبعد ذلك لا يدرى بشىء . . . والزواج فعلا حقنة فى العضل وحقنة فى العرق وحقنة شرجية وحقنة على يد مأذون !!! .

وهذه الأيام بدأت أشعر بكل هذه الحقن . كأنى أخذت الحقن وأنا فى حالة إغماء شديد ، وعندما أفقت أوجعتنى جميعاً . إننى مريض بالغفير ... إننى أشعر به فى يدى وفى رجلى وفى ظهرى وفى جنبى ... إنه مرض متنقل اسمه « الغفرس » على وزن النقرس !!!

وإذا كان النقرس مرض العظماء ، فإن « الغفرس » هو مرض العظماء أيضاً — أى — أصحاب المصائب العظيمة !!!

كأن حياتى كانت مكتوبة بحبر سرى لا يراه أحد . وفجأة بدأ هذا الحبر يظهر حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ... ثم أخذت الكلمات تتجمع وتتكوم كأوراق الكوتشينة وأمد يدى لأقلب ورقة وأجد مكتوباً عليها كلمة : شقاء !!!

وأصبحت هذه الأيام شخصاً لا يطاق ... عندما أدخل البيت يشعر كل من فى البيت أننى قنبلة تسيل لها الدموع والدماء وتنبعث لها روائح كريهة ... فالغفير يقف وإلى جواره « العهدة » — أى الأولاد — والأولاد يتعلق بعضهم ببعض تحت اللحاف وفى دورات المياه . . وكنت فيما مضى أدخل البيت كلص ظريف ... أما اليوم فإننى كمجرم عادى جداً ... أفتح الباب وأستند إليه بظهرى وأشير بيدى إلى أعلى وأسفل كأننى قائد أوركسترا من الأشباح أو كأننى ناظر مدرسة الصم والبكم !!!

وكنت أصدق فيما مضى أن الزواج كالفيلم الناجح ، يجعلنا نبكى أثناء العرض ثم نصفق فى النهاية ، ولكن يبدو أننى دخلت الفيلم من آخره ... صفقت أولا وبكيت أخيراً ... بل حتى ولا هذا ، فإننى على يقين من أننى دخلت وخرجت من السينما أثناء العرض ... ولذلك أحاول أن أدخل فيلماً جديداً ، أحاول أن أذهب إلى السينما قبل ارتفاع الستار ..

انتهت أقوال صديقى ...

وفى الأيام الأخيرة اختفى صديقى ، وعرفت أنه ينام نهاراً ، ويصحو ليلا ... فقد غضب الغفير وعاد إلى أهله وترك « العهدة » كلها فى البيت ... وجاء دور صديقى ليقوم بدور الغفير ونبوت الغفير وهو الآن فى انتظار اللصوص !

دنيا عم إسماعيل

— قل لي يا عم إسماعيل ... أين كنت أمس ؟

— هنا .

— لم تتحرك ! وأول أمس !

— هنا أيضاً . الدنيا تلاهى !

وعم إسماعيل بائع متجول . . بائع عنده عربة . والعربة لها عجلتات . . ويستطيع أن يدفع العربة أمامه إلى أى مكان فى شارع ٢٦ يوليو . . ولكن عم إسماعيل مصر على أن يبطل عمل العجلات . ويجعلها تتشبث بالأرض ؛ أما الدنيا التى تحدث عنها عم إسماعيل فهى لا تزيد على مائة متر طولا . . ومتر واحد عرضاً . فهو ينتقل من بيته إلى المكان الذى يقف فيه بعربته فى الشارع . . إنه لا يعيش فى دنيا . وإنما هو يعيش فى نفق . فى أنبوبة هوائية . طولها مائة متر وقطرها متر واحد وهذا الممر الضيق ، هذه القصبة الهوائية ، هذا البلعوم أو ماسورة العادم . . هذه هى دنيا عم إسماعيل !

وهو لا يسكن هذه الدنيا وحده . وإنما معه أولاده وزوجته وأقاربه وبعض الباعة المتجولين وكل واحد منهم يعيش فى أنابيب من نوع خاص . أضيق . أوسع . أقصر . أطول . ولكنها أنابيب . عم إسماعيل دنياه

لا تزيد أبداً منذ عشرين سنة .

وهو لا يعرف من شارع ٢٦ يوليو إلا هذه المساحة . ولا يعرف من القاهرة إلا بعض الأماكن التى كان يتردد عليها وهو شاب أو وهو طفل . والدنيا غيرته . أو تغيرت هى . إنه لا يعرف .

وهو يطلب من الله شيئاً واحداً : الستر . .

فإذا مرض يطلب الستر . يعنى العلاج .

وإذا نامت السوق . يطلب من الله الستر . يعنى الفلوس . .

وإذا مات — وهذا هو الأهم — أن يجد ثمن الكفن والدفن .

ودنيا عم إسماعيل يتحرك فيها الذئاب والوحوش الذين يأكل بعضهم البعض . وهو لا يخاف إلا من الخطافين أو الباعة المتجولين مثله . وهو لذلك يصالحهم ويصافحهم . ويمد لهم يده . . وشعاره : يجب أن تمد يدك دائماً وهى مليئة بشىء . أو إذا لم يكن شىء فلا أقل من الحرارة . . . حرارة السلام والتحية والوداع . يجب أن تمد يدك للناس . تربطك بهم صلة . . هذا أسلم من شرهم .

— وأين تعلمت هذه الأشياء يا عم إسماعيل ؟

— الدنيا يا ولدى . . الدنيا علمت الحمار وجعلته يمشى على اليمين دون أن يطلع على الرصيف .

وترددت فى كلامى مع عم إسماعيل . كلمات : الشخصية . الحرية والوجود . .

ولاحظت أن كل هذه الكلمات ليس لها أى معنى . ولا أى مدلول .

ولاحظت كأنني أتكلم عن قطع غيار السيارات الكاديلاك لرجل لا يملك إلا عربة كارو وعليها خيار ازداد اصفراراً من الشمس . . وعليها حبات من الطماطم وبعض العنب . . .

الشخصية معناها الطماطم . والوجود معناها أن يجد مكاناً بالقرب من الرصيف . والحرية معناه أن الطماطم تتحرر من ضربة الشمس .

منك نستفيد يا عم إسماعيل . . .

خوازيق الغرام ! !

حدث كثيراً أن تقدم أحد أبناء البلد إلى الخاطبة يسألها عن عروس . وتأتى له بعروس وتعجبه . وليلة الدخلة يجد نفسه أمام عروس أخرى . لقد خدعته الخاطبة وعندما يحاول الهرب ، يجد أن أهل العروس الذين يطلقون الأعيرة النارية « فى الفاضى » يهددونه بإطلاقها فى المليان . . .

ولكن هذا هو الذى يحدث كثيراً جداً بين أبناء المدن . فالواحد منهم يخطب فتاة . وليلة الدخلة يجد نفس الفتاة . ويهرب معها فى شهر العسل . وبعد ذلك يكتشف كل يوم أنها فتاة أخرى ...

وكأنه تزوج أخت العروس ، وكأنها تزوجت أحد المدعوين ...

فأيام الخطبة هى عمل فيش وتشبيه للعروسين ، وشهر العسل هو محاولة « مضاهاة » بصمات العروسين الذين أصبحا زوجين ...

ويحدث كثيراً جداً أن يكتشف العروسان تزويراً فى المستندات الرسمية !!!

أعرف مهندساً تخصص فى الخرسانة المسلحة . وتقدم المهندس لخطبة فتاة وتزوجها . وكان حديثه كله طبعاً عن الزلط والأسمنت والشكاير والحديد والصلب . وكانت أطول مناقشاته حول الخوازيق التى يجب أن يدقها فى الأرض قبل بناء العمارة . وكانت له فلسفة خاصة فهو يقول

لها: إن العمارات العاليه تحتها خوازيق عالية . وكلما كبر الخازوق، ارتفعت العمارة . وهو يقصد بلغتنا نحن : أنه ليس أحسن من الفقر والتواضع ، وأن العمارات الصغيرة لها خوازيق صغيرة ... ومتاعب قليلة ...

وكان الكلام يتساقط من فمه كالدبش ، وينزل على رأس الفتاة كالطوب . ولكنها كانت سعيدة به جداً . كانت ترى أن كلامه كالخوازيق . ولكنها الخوازيق التي لا بد منها لعمارة الحب ، وقصر السعادة ، وناطحة السحاب ...وكانت تنزل مع الخوازيق تحت الأرض ، وكانت تتشعلق مع العمال فوق السقايل ، وتتشعبط على أنابيب المياه ، وتصرخ عندما ينقفل الباب على إصبعها ... كل هذا وهى سارحة فيه ومعه ...

وكانت ترى أن الزلط والطوب أروع وأجمل من اللب والحمص والسودانى مع الشبان الصغار الذين عرفتهم قبل الزواج .

ولكنها أحست بالملل . ملل الاستماع ملل الصمت . لقد شعرت أنها التلميذة الوحيدة فى كلية الهندسة قسم العمارة فرع الخرسانة ... وأن زوجها هذا يحاضر ليلا ونهاراً . وليست هناك مقررات .

وليست هناك امتحانات للترم الأول أو للثانى ... ولا توجد إجازة لنصف السنة ولا آخر السنة ... والمحاضرات تبدأ بغير جرس ، وتنتهى بغير جرس ... وفى استطاعة التلميذة أن تنام وأن تأكل ويظل الأستاذ يتكلم بلا توقف ...

وأحس هو الآخر بالملل . فقد كان يعرف قبلها فتاة . فلم تستطع هذه الفتاة أن تصبر طويلا على الحياة بين الطوب والزلط . وكانت تتهمه

بأنه مأمور ضرائب يحلم بأن يكون وكيل نيابة إدارية فى مصلحة المبانى!!

وتركته هذه الفتاة . وعندما عرف زوجته . ظن أنه يستطيع أن يدخل قلبها إذا بدا أمامها كبيراً عالماً جليلا . مهندساً بارعاً . يحول الأرض الخراب إلى عمارات ، يحول الحجارة إلى سلالم ، والزلط إلى حوائط ناعمة ... وقد أقام الكثير من العمارات ولكنه نسى زوجته فى البدروم مع البوابين .

ولم تعرف زوجته أنه كان يخفى خجله . كان عندما يتحدث إليها لا ينظر إلى وجهها . يخاف من عينيها . فهو رجل بلا تجارب وكان كثير السرحان . وكان السرحان غشاء يتستر وراءه حتى لا ترى الزوجة حيرته ولبختته .

والدنيا كلها عنده عبارة عن فلل وبيوت وعمارات ...

وحياتهما عبارة عن بيت له ثلاثة طوابق . الطابق الأول هو الجنس والثانى هو الحب والثالث هو الصداقة ...

وهناك نساء كالعمارات ، لها باب واحد ...

ونساء لها أكثر من باب ...

ونساء لها واجهة جميلة فقط ...

ونساء لها مداخل من الرخام الأبيض الملون ...

ولم يعرف كيف يتراجع ... لم يعرف كيف يرتدى ملابس الطلبة ، ويرمى روب الأستاذ ...

وهى الأخرى لم تحاول أن تتراجع عن الاستماع إليه والسرحان فى شىء آخر .

وأصبح كل شىء مملا . صمتها ممل . وكلامه ممل !!!

ونحن عندما نتزوج فإننا نحاول أن نهرب من الصمت الممل . وعندما نفر من الزواج نحاول أن نهرب من الكلام الممل ...

وأصبحت حياتهما مللا ...

واكتشف كل منهما أن الآخر قد زور فى الأقوال والأفعال والشهود ...

ولم يصارح أحدهما الآخر ...

فقد قام « الخجل » بدور الخاطبة التى زورت العروسين ...

واتفق الاثنان على الانفصال ... ليبدأ كل منهما حياته من جديد ... ولكن مع إنسان آخر ... حياة الأكواخ والكباين والخيام ... حياة بلا خوازيق !

مذهب الكدهوّية !

اتفق رأى الأطباء على أنني يجب « أن أشوف لى حل » . . أنا الذى يجب أن أبحث عن الحل ... فقد حاروا . .

ليس الكبد هو السبب ... ولا الأمعاء الغليظة ولا المعدة ... ولا القلب ... وقد تكون الأسباب وراثية ... وقد تكون الأسباب عصبية ...

أما أنها أسباب وراثية فهذا مستحيل فقد كان والدى ينام ويستغرق فى النوم فى أى وقت يريد .... وكنت أنا و إخوتى نتبارى فى رؤية والدى وهو ينتقل من اليقظة إلى النوم إلى أعماق النوم ... فكان يطلب منا أن نعد من واحد إلى خمسة ... وقبل أن نصل إلى أربعة يكون قد نام . فليست الوراثة أبداً . وقد صدق المثل القائل : يخلق من ضهر النائم ساهر . .

وليست الأعصاب ... فأنا متنبه جداً . والسبب هو الطبع أو هى الهموم أو هى المخاوف أو هى عشرات من فناجين البن طول النهار وطول الليل أو هو انتظار النوم الذى لا يجئ !

ولكن الأعصاب كالحديد مشدودة طول الوقت ... وألاحظ أننى أحتمل الكثير من المواقف . ولا أقول بالابتسام ولكن بالصمت أو بمحاولة الدوران حولها . يعنى الأعصاب لا بأس بها ...

إذن سبب أرقى وسهرى ليس الوراثة ولاالأعصاب ... ليست وراثتى ولا طبيعتى ... ويبدو أن مشكلتى مع النوم هى مشكلة أدبية ... مشكلة لغوية ...

فأنا أعامل النوم باعتباره مذكراً ... باعتباره رجلا مثلى ... رجلا يحفظ كلمته ولا يخلف وعده فهو يعلم أننى على موعد كل ليلة . ومع ذلك لا يجىء ... أو يجىء متأخراً عن موعده ساعات .. وهذا يضايقنى والضيق يجعلنى عصبياً . وعندما أكون عصبياً لا أنام ... فيصبح جسمى كله فى حالة استعداد ... فى حالة طوارئ ... الأنوار الحمراء فى عينى والصفارات فى أذنى ... والأجراس فى صدرى .

ومنظرى ... كمنظر بيت احتشد أمامه الناس وكلهم يصرخون ... وأمامهم وقفت سيارات المطافئ والإسعاف والنجدة والآداب ... إن هذا المنظر يخيف أى إنسان أى زائر لك حتى لو كان هذا الزائر هو أعز صديق لك . حتى لو كان هو النوم !

ويجب أن أغير علاقتى اللغوية بالنوم .

يجب أن أعتبر النوم « مؤنثاً » ...

أعتبره فتاة ... فتاة جميلة أو قبيحة ... وإنما هى فتاة والسلام ... تجىء كل ليلة وتعطينى شيئاً منوماً ... فى العضل ... فى الوريد ... فى الضرس ... فى العين ... لا أعرف أين ... ولكنه شىء من نوع غريب . وليس مهمًّا أن هذه الفتاة قبيحة الشكل ... فالمرأة هى المرأة .. سواء أكانت م . مأى مارى منيب أو م . م أى مارلين مونرو . ولذلك فهى

لا تهتم بالمواعيد ... لأنها تتصور دائماً أن الرجل يجب أن ينتظرها ... يجب أن يتوقع مجيئها بين لحظة وأخرى ...

ولكن شعورى بأن النوم امرأة قبيحة ومع ذلك لا تحفظ مواعيدها يلهب أعصابى ويخلق « تماساً » فى أعصاب العين والأذن والأنف ... فأظل طول الليل فى حالة احتراق وتدخين ... ومعنى ذلك أننى لا أنام ...

والحل الوحيد هو أن أتصور أن النوم فتاة جميلة وأننى ميت فى هواها ... وأننى لا حياة لى بغيرها ... وأن كل جسمى يجب أن يحتفل بها ... يجب أن أتلمس لأنفى طريقاً إلى عطورها ، ولأذنى سبيلا إلى أنغامها ... ويبقى جسمى ممدداً على الفرش كأننى تربيزة سفرة عليها الطعام ... والطعام فى انتظارست الحسن والجمال ... ستجىء متأخرة عن موعدها . ولا مانع فهذا شرف عظيم ... المهم أن تجىء ...

ولا يجب أبداً عندما تجىء ست الحسن أن أناقشها الحساب ... لماذا تأخرت :.. ومن الذى عاكسها فى الطريق ... ومن الذى كانت تكلمه فى التليفون ... ولا يجب أن أسألها إن كانت ما تزال تحبنى ... أبداً إننى فى معركة معها ... مع الغيرة مع الحيرة ... ولكن هذه المعركة يجب أن تنتهى قبل أن تبدأ . . يجب أن أرفع علماً أبيض فى نهايتها . . فأحسن وسيلة للانتصار فى معركة المرأة هى الاستسلام لها ... هى الانسحاب أمامها ... هى الهرب من مواجهتها ... إذا هربت منها ، هربت وراءك . وتركت أهلها وأحب الناس إليها من أجلك ...

ومشكلتى مع المرأة التى هى النوم أو المرأة عموماً ... أننى أحاول

أن أفهم تصرفاتها أولا وثانياً وثالثاً وبعد ذلك أتصرف كما تريد هى ... ولكن عيب هذا النوع من التفكير أنه لا ينجح إلا مع الرجال ... ولكن المرأة لا ينجح معها أى تفكير ، أية محاولة لكى تكون عاقلا ، فلا فكر ولا عقل ولا منطق ... وإنما « كدة هو » و « كده هو » معناها أنك تتصرف أولا بأول ... حسب الموقف .. بلا خطة ولا برنامج ... و « الكدهوية » هو أقدم مذهب عرفه الإنسان منذ نزل من السماء إلى الأرض .. وقد كانت سياسة والدنا آدم ، تمشى على قواعد « الكدهوية » وإذا حواء أكلت من التفاحة لم يعاتبها ... وإذا استمعت إلى الأفعى لم يعاتبها ... وإذا قصرت لم يؤاخذها ... فلم تقع بينهما معارك ... ولم يمسك حجراً أو شجرة ويحطم رأسها ... ولذلك عاشت البشرية واستمرت لأنها طبقت « الكدهوية » تطبيقاً كاملا ...

ولذلك لا أتوقع أن أنام لا اليوم ولا غداً ما دمت غير مؤمن بقواعد الكدهوية ... فى الحياة عموماً ومع المرأة خصوصاً ... ومع النوم بالذات .

ولكنى اهتديت إلى حل أحسن .

فقد لاحظت أننى أتثاءب ابتداء من منتصف الليل ... بشرط أن أكون خارج البيت فإذا وصلت إلى البيت ... طار النوم ... ويبدوا أن النوم طائر حر يضيق بالحبس والقيود ... وقد حاولت أن أغرى هذا الطائر بأن أفتح له النوافذ ... وأن ألقى له بالغطاء من فوقى ... لعله يبقى طول الليل ساهراً فوق رأسى ... ولم أفلح ... وأذكر أننى فى إحدى المرات وقفت بسيارتى أمام البيت ... فاستغرقت فى النوم ... فتطوع

بعض الجيران وأيقظوني ... فقد ظنوا أنني مريض ... أو أنني فى حالة إغماء . وقد نصحني بعض الأصدقاء أن أنصب خيمة أمام البيت وأنام فيها ... وقد رفضت هذه الفكرة ... لأن الخيمة إذا أقفلت جوانبها فستتحول إلى بيت ... ويهرب النوم منى مرة أخرى . . .

والحل الوحيد هو أن أعمل كما يعملون فى أمريكا ... فقد رأيت فى أمريكا سيارات ، كثيرة مكتوب عليها (عريس وعروس) ... أو «بداية شهر العسل» ..أو «اليوم الأخير من الشهر الحلو» .. وكان الناس كلما رأوا أصحاب هذه السيارات ألقوا عليهم بالورود وتمنوا لهم السعادة . .

ولذلك سأقف بسيارتى أمام باب البيت وأكتب عليها « نائم » ... أو « دعونى أنام » أو « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » ... أو الفتنة نائمة فقط ولا داعى لشتيمة الناس ... والمشكلة هى أن الفكرة جديدة وسينظر إليها الناس فى دهشة وسيلتفون حولى ... وستقام حفلات العزاء وكل واحد منهم يأخذ بخاطر الآخر ويطالبه بالصبر والسلوان ... فقد كنت رجلا طيباً والأعمار بيد الله ... لقد مات عقل الأستاذ !

فما هو الحل ؟

إن الجواب على هذا السؤال هو ما أناقشه كل ليله !

عودة الصوت !

قام من النوم وقال : آه . . . .

وقالها مرة أخرى . وانتفض جالساً ليقولها مرة ثالثة . . . ويضرب حلقه بيده . . . ويدق صدره وظهره . ويشرب كوباً من الماء . وينطلق إلى الحمام ويسعل بصوت عال . . ولكنه لا يسمع شيئاً . لقد ذهب صوته . إن الحبال التي كان الصوت يتسلقها قد أنقطعت ... إن صوته في بئر . كأن حنجرته قد هبطت إلى معدته .. إنها تتكلم هناك ، فلها صوت يجيء على هيئة مغص .

أنه حزين.أن الذين يقولون له أنه ابتلع حنجرته سهواً يؤلمونه جداً. أنه لم يعد يضحك . بل لا يدرى كيف يضحك . يمد يده إلى التليفون ليتكلم ... مع من ؟ وكيف؟فكل ما يخرج من فمه هواء ... هواء يخرج من الخلق كأنه هواء الخماسين فيه تراب ورمل...ويرتدى ملابسه وتعترض أمه طريقه . . . فيتظاهر بأن في فمه ماء ... ولا ينطق فتقول له : مالك أسنانك تاني ... مش قلنا بلاش سجاير ... وبلاش سهر ... أبوك كان كده ... أخرتك زيه !

ولكنه لا ينطق . لقد ضاع أمله . أنه كان يحلم بأن يكون مذيعاً . وأن يقول هنا القاهرة ... بصورة غنائية ... لقد سمعنا منه « هنا القاهرة »

ألوف المرات ... وسمعنا منه كيف يقدم أم كلثوم لحضرات السيدات والسادة وكيف يصف فستانها وحليها ويصف صوتها وشعر أحمد رامى ... سمعنا هذا مئات المرات ... وتمنينا له النجاح حتى يحمل السادة والسيدات بعض ما نعانيه معه من عذاب ... كل شيء ضاع ...

وحمل حقيبة فى يده وتذكرة الطائرة وسافر إلى ألمانيا ...

ولا شيء يجعل الإنسان يشعر بأن الصوت عضو جميل ، إلا هذا الصديق .... فصوته يشبه الضوضاء العجيبه الموجودة على أرصفة محطات السكك الحديد ... فأنت عندما تجلس إلى جواره يذكرك ببائع السميط وبائع الصحف ، وصوت الكمسارى ، وهو يتشاجر مع أحد المسافرين دون تذكرة ..

والصوت عضو جميل .. كالفم والعين والأنف والساق .. ونحن فى اللغة العامية نقول «الحس» ومعناها الصوت . والحس معناه الإحساس ، وهذا معنى جميل . فالصوت هو كل أحساسنا ، كل ما فينا من عقل وفهم وقدرة على التعبير . والفلاسفة كانوا يقولون أن الإنسان حيوان ناطق ، أى حيوان له حس ... له إحساس ، له ... صوت ... له قدرة على أن يجعل أفكاره مسموعة .. فالصوت عضو جميل ، فيه جمال العين ، ودفء الشفاه ، وسحر الساق ...

أنه نعمة ، أنه هبة ، أنه رأس مال ... اسألوا عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم !

وسحر المرأة فى صوتها . وأنا أعتقد أن أجمل صوت فى الدنيا هو

صوت الممثلة الإيطالية اليانوره روسى دراجو ... هذا رأيى ورأى هذا الصديق الضائع الصوت والصيت ... أن الحبال الصوتية عنده تتحول إلى كرباج ، إن صوته يتحول إلى سوط يوجع ويؤلم أكثر الناس حبا له ، ويوجع أمه التى تحبه أكثر من أى إنسان فى الدنيا . ولا أعرف اسم الشاعر الذى كان يقول : لا توجد امرأة واحدة لا أستطيع أن أنتصر عليها بشرط ألا تفتح فمها . . . لأنها إذا تكلمت فقد استخدمت أقوى أسلحة الشيطان !

وكان صديقنا هذا يغنى أيضاً ويقفل الراديو عندما يستمع إلى عبد الحليم أو نجاة ويقول : حظوظ !

وكانت تمشى وراءه جبال من لعناتنا وأنهار من دموعنا . . .

وكان فى نيتى أن أدعو له وأصلى من أجله ... لولا الخطاب الذى بعث به من ألمانيا ... إننى لا أصدق ما أقرأ ... الخط على الآلة الكاتبة ... التوقيع للدكتور « إلفرد ... »... لقد أعطيت الخطاب لهذا الصديق وذاك . . ولا أحد يصدق الخطاب أو يصدق الطبيب الذى يقول : أن صوته قد تخاذل وانهار لأنه قليل الكلام . وأنه سيعيد إليه صوته !

إذن . . . ستكون حبالة الصوتيه ، مشانق لكل الأصدقاء !

كنز لا يفنى

فى عينى صور متتابعة لأناس راضين ضاحكين . أحدهم يجلس على الأرض فى شارع فؤاد يمزق إطارات السيارات ويصنع منها نعالا للأحذية القديمة . وفى استطاعتك أن تمر أمامه وأن تبتسم له . أو تحييه . انظر إلى وجهه إيه يمتلئ بالدم والنور ويضحك ويحييك . ولا تختفى الابتسامة بسرعة . وإنما تظل عالقة بوجهه مضيئة كعلامات المرور . .

من أين له هذا الرضى ؟ هذه القناعة ؟ هذه السعادة ؟

إنه يجلس على الأرض . على قطعة من الحجر ... وظهره للحائط . ورجلاه ممدودتان ...

أهو يغترف من ذلك الكنز الذى يسمونه القناعة . والقناعة كنز لايفنى . أهو الصبر على ما عنده . وليس عنده شىء . . .أهو الإيمان ؟ الإيمان بماذا ؟ أهى طبيعة الوجه أن تمتلئ بالنور والسعادة ؟

وسيدة أخرى تحمل على رأسها «مشنة» بالفول السودانى . وجهها لامع وساقاها مغسولتان دائماً . وهى إذا سارت فإنها تتثنى وتوزع ابتسامتها أكثر مما توزع بضاعتها ولا تكف عن الضحك أبداً ولا تبيع أبداً . ظللت أرقبها مسافة طويلة . إن أحداً لا يشترى منها . ومع ذلك فهى لا تبخل على أحد بابتسامة أو بتحية أو بإغراء .. ولكنها تضحك دائماً وتمد يدها

إلى المشنة تأكل مما تحمل أيضاً . أنها تنوب عن الزبائن فى تذوق هذا السودانى الساخن – كما تسميه . .

نفس الوجه . نفس الابتسامة . . والينبوع الخالد . يتفجر من وجهها وعينيها وصوتها ومشيتها ...

أهو الصبر الذى هو مفتاح الفرج ؟

أهى طبيعتنا المصرية ؟ ولكن هل هناك شىء اسمه « طبيعة » مصرية وطبيعة إنجليزية أو فرنسية ... ؟ أم أنها طبيعة واحدة لكل الناس ؟ أهى صفات شخصية ؟ ولكن كيف تكون شخصية ويتصف بها معظم الناس ؟

ورجل ثالث جاء ضيفاً علينا نحن رواد « البن البرازيلى » ... رجل بجلباب وجاكتة يبيع كرافتات صنعت من الجلد، أنها جميعاً تشبه كرافتة توفيق الحكيم ... غير قابلة للكسر ولا الغسل وينادى عليها بأسلوب خاص ويقول : فكرة جميلة جداً ... الفكرة دى جميلة جداً ... جداً .

ويروح ويجىء فى شارع سليمان باشا بين دور السينما ويعترض المتفرجين ويضحك الناس عندما يرونه أو عندما يفاجأون بأسلوبه الخاص فى النداء على الكرافتات ويقتنعون معه بأن الفكرة جميلة جداً .. وأنها فكرة فقط . ولكن يداً واحدة لا تمتد إلى شراء هذه الكرافتات ولم أر أحداً غيرى اشترى منه كرافتة واحدة . . ولكن الرجل صاحب الجلباب والجاكتة لا يكف عن الابتسام ولا عن الفكرة الجميلة جداً ... ويظل يروح ويجىء كأنه كرافتة . وكأنه معلق فى شماعة . ولا تمتد إليه يد أو حتى يكلمه إنسان ... ويضحك !

هذا الابتسام أو هذا الضحك أو هذه القناعة ما معناها ؟ هل معناها أن هؤلاء الناس نفوسهم لم تصدأ . وأن جذوة حياتهم لم تخمد ؟ ولماذا ؟ هل هى روح المقاومة لقسوة الحياه ؟ أهو الإيمان الذى يمدهم بأسلحة وعتاد لا ينفد ؟ أهو الانتظار السعيد ليوم الفرج ؟ أهو العالم الصغير المحدود الذى يتحركون فيه ، والذى يحد شمالا ببائع البرتقال وجنوباً ببائع ورق اليانصيب وشرقاً بمحطة الترام . . وغرباً بالحائط . . وهل إذا كان عالمنا محدوداً كانت متاعبنا أقل وهمومنا أخف . . .

هل هذا العالم المحدود هو الذى يجعل بائع الفجل مثلا يضع ساقاً على ساق ويقول : أنا سلطان زمانى . . .

أما حدود هذه السلطنة فهى جانب من جانب من شارع صغير أو حارة مسدودة .

أهو نفس العالم الذى صوره « لاكسنس » الذى فاز بجائزة نوبل العام الماضى فى قصة « سالكا فالكا » . فهو فى هذه القصة يقدم لنا أناساً يعيشون فى جزيرة تغطيها الثلوج وتكتسحها العواصف أو الثلوج العاصفة ... يعيشون فى عزلة جليدية عن العالم كله ... ويتحكم فيهم صاحب الزورق أو بائع السمك . . . وعندما تلعب الخمر الرديئة برأس صاحب الزورق يقف على منضدة ويعلن أنه سيد البحار . وحاكم الجزيرة وأنه الذى يمسك الجوع عن كل الناس. ولولاه لانعدمت الإنسانية كلها . . . إنهم يعيشون فى عالم محدود جداً وهم راضون وقانعون و بعضهم يحسد البعض . وفيهم متدينون . لأنهم لا يدرون ماذا يصنعون أمام الجليد

والعواصف والبحر والخوف والفقر .. لا شيء إلا الصلاة . وفيهم ملحدون . لأنهم لا يخافون أحداً أو شيئاً . لأنهم يملكون وسائل أحياء الناس . ولذلك فهم حكام مشيدون أو آلهة . .

أنه العالم المحدود الذى يملأ قلوب الناس بالسعادة ...

وعندما ذهب « جيلفر » إلى بلاد الأقزام قابله الملك والوزراء وسألوه: هل رأيت أروع من بلادنا ؟ هل سمعت عن أناس أقوى وأعظم منا ؟ هل شاهدت هندسة وعمارة وفناً أجمل مما فى بلادنا ؟

وضحك الملك وتمايل الوزراء. فقد سكت جيلفر . وسكوته ما معناه ؟ ليس معناه أن الملك قد أقنعه بشيء .

والملك سعيد وحاشيته و وزراؤه والشعب سعيد فى هذه الدولة المحدودة التى يقطعها جيلفر طولا وعرضاً فى بضع دقائق . . .

إنه العالم المحدود المريح . . إنها القناعة التى تشبه ذباب « تسى تسى » الذى إذا لدغ إنساناً جعله ينام وينام إلى الأبد ...

إننى لا أحسد أحداً من هؤلاء على الرصيد الذى لا ينفد من الابتسام والقناعة . ولكن أتمنى القليل مما لديهم دون أن أجلس وظهرى إلى الحائط أو أبيع الفكرة الجميلة جداً . . !

سبع صنايع . .

هو كل هؤلاء ... ليسانسيه فى الحقوق ... ليسانسيه فى الآداب مرتين ... مرة فى التاريخ ومرة فى اللغة الفرنسية ... ومصارع فاز بعدد من البطولات فى حمل الأثقال ... وفاز بالمرتبة الأولى فى جمال الأجسام . وموسيقار وشاعر وطالب ماجستير يدرس موضوعاً لم يتناوله أحد قبله وهو الموسيقى عند قدماء المصريين ... وموظف فى الدرجة الثالثة وفاشل فى حبه الأول والأخير !

واسمه : ى . . من الأسكندرية وله قصة . .

أولها أن يقعوب كان تلميذاً ضعيفاً ... وكانت أمه تخاف عليه أن يسقط فى الطريق فيموت ... فكانت تصونه فى البيت . تقفل عليه الباب حتى لا يصدمه الهواء . وتسارع إلى النافذة فتقفلها فى وجه الشمس . وازداد الفتى ضعفاً ... وطلبت إليه أمه أن يمارس أى نشاط يتفق مع هذا الهزال ... وبدأ يحرك أصابعه على الكمان ... وبدأت حركة غير عادية تدب فى جسمه كله ... كأن عملاقاً هائلا قد تربع فى أحشائه . فإذا هو ينتفض ويدفع فيضاناً من الحياة فى ذراعيه وفى صدره وفى ظهره ... أو كأن مجموعة هائلة من الأفاعى قد هربت من قفصه الصدرى فتسربت إلى ذراعيه والتفت عليها . وإلى رجليه ... لقد قامت القيامة فى

جسم يعقوب ... ... واختفى الشاب المريض ... وصحت الأفاعى على صوت الكمان فقامت تتلوى ... وراحت تضرب وتصارع وتحمل ١٦٠ كيلو وهو ما يزال فى السابعة عشرة من عمره ... وكان التصفيق حادا وكانت بطولة ... وإذا هو يسبح فى الماء بطلا ... وعند حافة الشاطئ يلتقى بالعازف العالمى « جاك » أحد أعضاء فرقة روبسون المطرب المعروف وإذا هو ينقذه من الهلاك ... ويتطلع جاك إلى أصابع منقذه ويدهش كيف أن هذا الوحش له هذه الأنامل الموسيقية ... ويكتشف أنه لم يخطئ . . . فهذا الشاب موسيقار . . . ويدعوه للعمل معه فى لندن ويفضل ى . . . البقاء فى مصر لينال ليسانس الحقوق وهو فى التاسعة عشرة من عمره ويصبح بطلا للأسكندرية ... ولمصر ،ويصبح ملكاً فى لجمال الأجسام ... وله صور وقصص ومعجبون ومعجبات وتقع عينه على فتاة ... أو تقع عين فتاة عليه ..

وكانت نظرته قوية كعضلاته ... وأعجب بالفتاة وأعجبت به الفتاة . أعجبت بالحديد اللين ... ولكن هذه القوى الهائلة مهما كانت فهى خرساء أمام فتاة رقيقة تخرجت فى المدارس الفرنسية ... فلا بد أن تكون هناك لغة أخرى ... فكان ليسانس الآداب فى التاريخ ... وكان الحديث عن غرام الأبطال والملوك والأمراء ... وروميو وجولييت . وأنطونيو وكليوبطره وقيس وليلى ، وكثير وعزة ... ودوقة وندرسور ... وانتهى الكلام ...

ولكن الحب طفل صغير ينام ويصحو على الحواديت . . إنه

ينام ويمدد رجليه وذراعيه فى قلبين اثنين فى وقت واحد ... وصحا الحب يبحث عن لعبة أخرى يلهو بها ... وكانت اللعبة هى الليسانس الثانية فى اللغة الفرنسية ...

والتقيا معاً فى لغة واحدة ... وكان الحديث عن غراميات الأدب الفرنسى وعن التضحية بالدين والوطن والمال من أجل الحب ... ولكن هذا الكلام كانت قد سمعته من قبل باللغة العربية ... كان كلاماً معاداً ..

وتحركت أصابعه النحيلة مرة أخرى ... أنها كأصابيع البيانو وكتب مقطوعات موسيقية وعشرات تردد فى الإذاعات العربية ... ثم كانت مقابلة للسائح العالمى « فتزباتريك » . الذى طلب منه أن يؤلف له الموسيقى التصويرية لفيلم سياحى عن مصر .. وقد عرض الفيلم فى مصر ... وعندما انتهى ى ... من وضع موسيقى هذا الفيلم ... مد فتزباتريك أصابعه فى جيبه وأخرج دفتر الشيكات وسأله : كم ألفاً تريد؟ ورفض ى ... أن يتقاضى أى مبلغ من المال لأنه أدى واجباً وطنياً . ودهش السائح الأمريكى لهذا التفكير الغريب . . . ومد يده فى جيبه مرة أخرى وأخرج شيئاً ونادى الخادم وقال له : كوبة ماء من فضلك ... فلما حضر الخادم أعطاه السائح الأمريكى ورقتين فئة كل واحدة منهما مائة دولار ! ... وكان ذلك بقشيشاً ... أن ى ... لا يخفى اليوم أسفه ولكنه عندما شاهد الفيلم ورأى اسمه يملأ الشاشة ... وقرأ أنه مؤلف الموسيقى التصويرية أحس أن فى جيبه مليوناً من الدولارات .

وذهب وهذه الملايين فى جيبه إلى فتاته ... إنه يرى فيها الجمال

الكامل . أنه يرى أن الطبيعة قد قالت كلمتها فيها ... بل أدلت بكل أقوالها وبصمت بكل أصابعها، إنه كان ينظر إلى صدرها وهو يعلو ويهبط . فكان يصاب بدوار البحر ... لقد كان البحر الأبيض يخاف منه ، ولكنه أمام هذا البحر الأسمر ، يخاف الاقتراب من الشاطئ .

وتعلقت عينا الفتاة بأحد المعجبين به واختفت معه فى بيت الزوجية . . . وبقى هو وحده يحمل الكتاب بعد الكتاب فى يده ويجتاح الشواطئ والنوادى لعل أحداً يقتنع بأنه فنان وليس فيلا أو ضرفيلا ... ولكن أحداً لا ينظر إلى أظافره اللامعة أو أصابعه المسحوبة الطويلة ... أن الناس تنزل على إرادة الأغلبية فى جسمه . . . والأغلبية تقول : أنه مصارع ... والأقلية تقول : أنه فنان . . .

وكان لابد أن ينبت الشعر فى وادى الفشل العاطفى ... والحب يشبه قوس قزح لا يظهر إلا على سماء ملبدة بالسحب ... فتوالت القصائد عن الندى والفجر والسهر والبكاء والبلبل الذى يسكن جبلا اسمه ى.... ولكن الفتاة مشغولة بصراخ الأطفال واللبن والبزازة ... والطفل ى ... يبكى بعضه على بعض ... ويمسح دموعه بثلاثة ليسانسيهات .

والقصة لم تنته ... أنه يعمل الآن فى إحدى الإدارات التى يستغل فيها كل مواهبه الأدبية والفنية والجسمية والعاطفية ... أنه يعمل فى الحجر الصحى !

واستراح الناس

لا يعرف أحد من أين جاء هذا الرجل العجوز . ولا من أين جاءت هذه الفتاة التى تقسيم معه ... إلى أن كان أمس وأمس فقط ...

كل ما نعرفه نحن أبناء هذه المنطقة أن هذا الرجل العجوز يقيم مع هذه الفتاة منذ سنين . لم يقف فى نافذة ولا فى باب ... بل لم يرهما أحد معاً فى البيت أو فى الشارع ... لم يحاول أحد أن يسأل الرجل العجوز فإنه جاد طيب ... ولم يحاول أحد أن يسأل هذه الفتاة فإنها مهذبة رقيقة ... ورقتها لا تشجع أحداً على أن يقترب منها أو يسألها ... أنها تقيم بينها وبين الناس ستائر تحول بينهم وبينها ... أنها ليست ستائر سميكة أو قوية ... ولكنها ستائر ... ولا يحاول أحد من الناس أن يخترق هذه الحجب الرقيقة .

وكان الناس ينظرون إلى نافذتها وقد غطتها الستائر . ويقولون إن هذه الفتاة تعيش فى السحاب ... وكان الناس إذا رضوا عنها قالوا : أنها ملاك يحرسه رجل مخلص ... وإذا غضبوا قالوا : هذه هى الأميرة وهذا هو الشيخوخة وهذه هى الشباب .

ولكن أحداً لم يستطع أن يتجاوز حد القول إلى الطرق على الباب والسؤال عن صحة الفتاة ... أن أحداً لا يعلم أنها مريضة ولا أحد يعلم

أنها صحيحة ... أنها بين المرض والصحة ... بين أن تكون ابنة هذا الرجل وبين أن تكون أخته ... ولكن أين أمها وأين أبوها ... بل أين أمه هو وأين أبوه هو ...

وكان الناس يجتمعون على سطوح البيوت يسمعون أنباء هذه الفتاة وهذا العجوز ... ففى ساعة محددة من الليل تظهر الفتاة بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين فوق الأسطح وتحييهم فى أدب ثم تقفل النافذة وتضىء الأنوار وتجلس إلى البيانو .. ويقال أن العجوز كان يجلس إلى جوارها ... فقد عرف الناس ذلك عندما فتح الهواء الشباك مرة . منذ سبعة شهور .

وتظل الفتاة تلعب بأصابعها على البيانو ساعة أو ساعتين ... وينطفىء النور. وتدخل الفتاة غرفتها وتضىء مصباحها ... ويقال أن العجوز يذهب إلى حجرته ويضىء المصباح بعض الوقت ... وبعد ساعة يحتوى البيت كله ظلام .

هذا يحدث كل يوم ... ومنذ سنوات وقد تعب أهل هذا الحى الذى أعيش فيه من هذه القصة الغريبة ... أو من هذا اللغز وراحوا يفترضون فروضاً بعيدة وقريبة ... وكانوا يفترضون قصصاً وهمية يناقشونها نقاشاً طويلا ولا يخرجون بنتيجة .

فهناك من يقول أنه جاسوس ... وأنه يقرأ كل الصحف التى تصدر فى مصر بكل اللغات ... وأنه لا يبعد أن يكون صهيونياً وأن يكون خائناً لمصر ...

وبعد ذلك يعتذر أصحاب هذا الرأى عن هذا الظن السيئ ... أنهم يقسون على هذا الرجل وهذه الفتاة . وسبب ذلك أنهم تعبوا من محاولة الفهم . تعبوا من التخمين . فانهالوا على العجوز وعلى الفتاة ضرباً بالإشاعات والتفسيرات الغريبة .

وهناك من يقول أن هذا الرجل يعمل على تهريب الحشيش والأفيون . . وأن هذه حيلة قد اتخذها حتى لا يلفت إليه الأنظار . . ولكن ما هذه الحيلة ؟

لا حيلة هناك . . وإنما الرجل يسكن هادئاً فى منطقة بولاق التى لا هدوء فيها ولا راحة عين ولا أذن ولا أنف ولا حنجرة ولا قلب . . لا راحة فى هذه المنطقة ... فلماذا لا يسكن فى الزمالك إذا كان هذا رقيقاً.

ودارت مناقشات فوق سطوح البيوت هل هذه ابنته ؟ هل هذه أخته ؟ هل هى عشيقته ؟

لا جواب على هذه الأسئلة كلها وتعلقت الأسئلة حول هذا البيت كالأعلام السوداء ... تحجب كل شئ عن العيون والعقول أيضاً ...

وتعب الناس فوق سطوح البيوت وتحت السطوح وفى حجرات الطعام والنوم ولابد أنهم تعبوا فى مكاتبهم ...

إلى أن كان أمس عند منتصف الليل فقد انطلق صوت ... إنه لم يكن صراخاً وإنما كان صوت الليل وقد تمزق قطعة أو قطعتين ...

وفتحت النافذة ... فلم أجد شيئاً ولم أسمع شيئاً .

وفى الصباح سار نعش صغير ووراءه كل أهل الحى . . أن واحداً

منهم لا يعرف من الفتاة التى ماتت ... ولا يعرف من هذا العجوز الذى يبكى وراءها . . . لقد رأى الناس عجوزاً يبكى فبكوا . رأوا نعشاً يتحرك فساروا ... رأوا يداً ترتجف فمدوا أيديهم إليها وقالوا : البقية فى حياتك ... كلنا لها ... الأعمار بيد الله .

وعندما عادوا من هذه الجنازة عرفوا أن التى صرخت فى الليل ، لم تكن امرأة وإنما كان العجوز هو الذى ظل يصرخ ساعة بعد ساعة حتى اجتمع حوله كل الناس . . أما العجوز فليس أباها ولا أخاها ولا عشيقها ... إنه زوجها ... لقد كان هذا الرجل طبيباً وكانت هذه مريضة فى مستشفاه فأحبها وتزوجها . وعرف أنها يتيمة . وعرفت هى أنه يتيم الأب والأم والأخ والأصدقاء ... وعاش هذا الطبيب يعالجها ... لقد جعل بيته مستشفى لها ... ولم تدر هذه الفتاة ماذا تفعل من أجله . إن كل ما تملكه هى أن تعزف على البيانو ... أن أقوى شىء فى جسمها كله هو أصابعها ... وحركت أصابعها ... ساعات وساعات ... إنها تسبح له بهذه الأصابع وتدعو له وتشكره وتقبل يديه ورجليه بأصابعها وموسيقاها .. ورضى زوجها وطبيبها وحارسها .. . ولكنه كان يعلم أنه لا أمل فى الشفاء . . إنه كان يعيش مع امرأة ميته . . كان يرى حبه يموت فى عينيها وفى شفتيها . . يموت بين يديه فصرخ وبكى ودفنها . . ولم يسترح . . واستراح الناس ! .

بقايا كل شيء !

طفاية سجائر . . هذا كل ما تبقى .

فجأة وجدت نفسي وحدى . كل من كان وما كان معى قد اختفى . . . تلاشى فجأة خرج من الباب أو من النافذة . . لا أعرف . فقد امتدت يد الظلام وسحبت المصابيح والمقاعد والمناضد . . وكل ما بقى هو طراطيش كلام فى أذنى . وبقايا روائح وعطور وعرق وسجاير وزكام فى أنفى .

وفى الظلام تلمست طفاية سجائر كانت أمامى . . فيها بقايا سجائر طويلة أطفئت بسرعة . . وسجائر أطفئت على مهل . . وسجائر سحقتها أصابع عصبية . . عليها أحمر شفاه . . عليها نار وليس لها دخان .

هذه السجاير التى أمامى أعرف كيف لقيت مصرعها واحدة واحدة هذه السجائر الطويلة رأيتها وهى تموت فى شبابها . . رأيت يداً غليظة تدفنها حية . . إنها سيجار صديقى الذى مالت عليه زوجته تهمس فى أذنه . . وكلما تعالى الهمس زاد ضغط أصابعه على هذه السيجارة الطويلة . . لقد أنكر أنه يعرف من الذى طلبه فى التليفون عدة مرات ولم يشأ أن يرد عليه أو عليها . . ولكن زوجته مصرة على أنه يعرف

وأن التي طلبته هي خطيبته السابقة وأنها رأتها منذ أسبوعين قريبة من البيت وأنها سمعت .وأنها وأنها . . وتحطمت السيجارة تحت أصابعه . خنقها . . وأدها .كما كان يفعل العرب في الجاهلية . . كانوا يئدون البنات خوفاً من الفضيحة .

وهذه السيجارة تركها صاحبها تشتعل دون أن يقربها . . إنه يجد لذة في تعذيب الآخرين . يراها ولا يلمسها . يحرقها ولا يطفىء نارها . لقد أخرجها من جيبه بأناقة وأشعلها بعناية . وتركها هناك بهدوء وراح يتفرج عليها بلذة . . إن صديقي هذا يحاول الإقلاع عن التدخين . . لذلك فهو يشترى السجائر ويشعلها ولا يدخنها . . وإنما يضعها على حافة الطفاية . . على حافة الهاوية . . إنه تعب من التدخين . . إنه كالرجل الذى تعب من اللهو.. تعب من عشرة النساء .. تعب.. فهو يتفرج بلذة المنتقم الشامت. وصديقي هذا يحاول أن ينتقم من مئات الألوف من السجائر التي لسعت شفتيه وأحرقت حلقه ومزقت صدره وصبغت بالصفار أصابعه..

وهذه السيجارة دخنها صاحبها بسرعة . ! وأشعل منها سيجارة أخرى . . أنها بزازة في فم طفل يرضع الهواء . . يموت إذا ابتعدت عن فمه .

وهذه السيجارة عصاً يتوكأ عليها الكلام عندما يخرج من فم هذا الصديق . . إنه لا يتكلم إلا وهي في فمه . . إن كلامه دخان في الهواء . . أو دخان كلام في الهواء . .

* * *

حياتنا كلها سجائر . . متشابهة . . هذا يدخنها على مهل . . وهذا بسرعة . . وهذا يتفرج عليها . . وهذا يحرقها وتحرقه . . تمزق صدره ويسحقها . . السجائر تنتهى فى أفواهنا أو نحن الذين ننتهى عند أطراف السجائر . . نحن الذين ننقلها بأصابعنا إلى الطفاية . . أو هى التى تنقلنا . . .

لا أعرف ماذا كنا نقول . . تكلمنا كثيراً . . ولكن ماذا قلنا ؟

لاشيء .. ناقشنا كل مبدأ وكل مذهب فى السياسة والاقتصاد والأدب والنقد . . ولم نتفق على شيء . . كأننا نتكلم بلغات غير معروفة . . فكل واحد قال ولم يسمعه أحد . . كنا ننظر إلى شفتيه لنعرف إنه يتكلم . . فإذا إطال آطباق شفتيه عرفنا أن المدة المخصصة للكلام قد انتهت . فيتكلم بعد ذلك الذى بجواره .

كأننا كومبارس ننتظر أحد الأفلام .. كأننا ست شخصيات تبحث عن مؤلف .. كأننا ست عارضات للأزياء ولا تنقصنا إلا الدار التى نعمل فيها .. كأننا ست سجائر أشعلت وتركت لكى تخمد أنفاسها بنفسها .

كل فكرة قيلت آخمدت فى الحال . . كل فكرة اشتعلت ودخلت رأسى انطفأت فى الحال . . كل الأفكار أسمعها ولا أكاد أفكر فيها حتى أسمع لها صوتاً واحداً : طش . . وهذا صوتها وهى تنطفىء فى رأسى التى هى بحيرة راكدة . أو طفاية سجائر مليئة بالماء . .

جلسنا وتكلمنا وأطفأنا سجائرنا . وانطفأت فينا أفكارنا . . وقام فأر السبتية بمهمة مدير المسرح فأنزل ستاراً أسود وبدأنا نخبط ونتخبط . .

تماماً كأننا فى مسرحية بدأت من آخرها فنزل الستار وسمعنا الدقات التقليدية للمسرح . . ودخلنا فى مسرحية عقيلة نسمع فيها ولا نرى . . والذى نفهمه لا يقنعنا ولا يعنينا . . وكل محاولة للكلام أخمدت فوراً . وكل محاولة لاستئناف الكلام هى محاولة لإشعال عقب سيجارة مبللة . . ومددت يدى إلى طفاية السجائر كأننى طفاية أمسكت طفاية .. ومن « أعقاب » كل شىء لففت هذه السيجارة التى قرأتها !

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤

كتب للمؤلف

١ – طريق العذاب .

٢ – الوجودية .

٣ – وحدى . . ومع الآخرين . .

٤ – عذاب كل يوم .

٥ – قصص إيطالية .

٦ – مدرسة الحب .

٧ – ألوان من الحب .

٨ – هذه الصغيرة .

٩ – دراسات فى الأدب الأمريكى

١٠ – الإمبراطور جونز .

١١ – قصص من الأدب الإيطالى .

١٢ – من روائع الأدب العالمى .

١٣ – حول العالم فى ٢٠٠ يوم .

١٤ – اليمن . . . ذلك المجهول . . .

١٥ – قالوا . . .

١٦ – وداعاً أيها الملل .

١٧ – بقايا كل شىء .

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

